احمد خيرى سعيد

الدسائس والدماء

على بك الكبير "حياته وعصره"

قصة تصف صفحة مطوية من تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر

الثمن ٨ قروش

مطبعة الهلال

١٩٣٥

احمد خيرى سعيد

الدسائس والدماء

على بك الكبير "حياته وعصره"

قصة نصف صفحة مطوية من تاريخ مصر في القرن الثامن عشر

مطبعة الهلال
١٩٣٥

الاهداء

الى أصدقائى أدباء المدرسة الحديثة ،
أهدى هـذا العمل الجديد في القصص
التاريخى ، لانهم أضافوا الى الادب العربي
« فن القصة » .

احمد خيرى سعيد

الفارس المجهول

أهذا الفارس هارب ؟ ! أم يجد في طلب عدو لاذ بالفرار ! ؟

إنه لا يلتفت الى الوراء ، كمن يخشى كارثة تلاحقه ! ولا يلتفت يميناً أو يساراً ، كالذي يحذر مفاجأة تباغته ! وليس في ملامحه ما يدل على فزعه . هو مطمئن أو كأنه مطمئن ، يستحث جواده في طليعة نفر قليل من الفرسان ، واحد منهم يسير متأخراً عنه خطوة ، والبقية من ورائهما تعدو خيولهم على خطوات

أوغلوا في قلب القاهرة ، في ضحوة النهار ، لا أحد يلقاهم في الطريق ، والحوانيت التى تطرز جانبي شارع الغورية مغلقة ، وأبواب المنازل والخانات والربوع أوصدها أهلها وصعدوا ينظرون من النوافذ أو يشرئبون من فوق السطوح

الطرقات خالية الا من الاضواء والظلال ـ اضواء الشمس المبسوطة على الجدران ، قد سطعت أشعتها على رقاع من الارض ، ونامت الظلال على رقاع بجوارها . وكان يخيل للفارس أنه يجتاز مدينة مهجورة ، وكانت عيناه تقعان بين فترة وفترة على الوجوه المشرفة من النوافذ والمشربيات ، فيحسبها اشباحاً لاحت من وراء الافق

سمع القاهريون دوى الرصاص يحمله نسيم الصباح المتأخر ، قادماً من « قصبة رضوان » . فترامت الانباء الى اقصى الحي ، منتقلة على ألسنة الباعة والتجار ورواد هذه الناحية ، التي كانت وقتذاك مركزاً تجارياً صناعياً . وبعد دقائق أغلقت الحوانيت والقهوات البلدية والمصانع الوطنيــة ، وهرع الجميع الى بيوتهم وأوصدوا أبوابها ـ لم يغلقوها مخافة السلب والنهب ، ولم يجزعوا

من نشوب المعركة في « قصبة رضوان » . لقد كثرت المعارك بين زعماء المماليك حتى ألفوها ، وحتى أصبحت شيئاً يتوقعونه في أي وقت

المعركة ناشبة بين « شيخ البلد » ، و فريق تمرد عليه بزعامة ابراهيم بك ذي الفقار . فاعتصم منهم في قصره ، وحاصره الثائرون من جميع الجهات الا جهة ما كان يخطر ببالهم أنها جديرة بالحصار . وطفقوا يطلقون النار على القصر ، فذادهم عنه جيش صغير من مماليك شيخ البلد ، دافعوا دفاعاً أشبه بالتسليم منه بالنضال . والواقع ان شيخ البلد دبر خطة للهروب في صورة الدفاع عن قصره . فأمر اتباعه ان يقتصدوا في اهراق الدماء ما استطاعوا ويصوبوا رصاصهم الى الجدران أو الى خيل العدو . ونهاهم عن اصابة المقاتل وأوصاهم أن يتراخوا في الدفاع قليلا قليلا . ثم يسلموا عنداقتحام الثائرين أبواب القصر . أمرهم أن يفعلوا ذلك ، ريثما يأخذ هو للفرار أهبته . وذهب الى « السلاملك » حيث الخزائن ، فأخذ قدراً يستطاع حمله من اكياس الذهب ونفيس الجوهر . وصاح بالخدم أن يستحضروا الفؤوس ويهدموا وجه الحائط عن الباب السري ، وجعل صديقه عبدالله بك كتخدا يشرف عليهم ويحثهم. أما هو فوقف هنيهة حائراً متردداً بين أن يصعد الى الحريم لتوديع زوجه وصغاره ، وبين أن يستودعهم الاقدار دون أن يضع في افواههم قبلة الوداع

لم يطل تردده ، فان واحداً من مماليكه صاح هلعاً : « لقد شرعوا يضربون باب القصر بالفؤوس ، فهل نصدهم بالبارود ! ؟ »

فانتبه شيخ البلد من غشية الحيرة ، وقال : « كلا . اياكم ان تقتلوا واحداً منهم . اجتهدوا ان تعرقلوا اقتحامهم ، بالمفاوضة في التسليم »

قال ذلك ومشى إلى ناحية الباب . لكنه عاد قبل أن يقترب منه ملبياً دعوة صديقه عبد الله بك الى الاستعداد للهروب . فامتطى جواده ونادى على رهط من مماليكه ، فركبوا هم وعبد الله بك خيولهم وخرجوا من الباب السري

خرجوا من القصر ودخلوا منزلا يسكنه شيخ اشتهر بالسحر وعلم الغيب وكشف الاسرار . كان ذا حظوة عند الباشا الوالى ، وليس بين زعماء المماليك وأعيان القاهرة الا من يترضاه ، ويمنحه ثقته . وما أن دخلوا الفناء

حتى وجدوا الشيخ عبدالصمد المغربي واقفاً ينتظرهم ، ولم تكن تبدو على الشيخ علامات الاستغراب من نقب الجدار ، وإنما كان عجبه من الثورة التي انفجر بركانها على غير انتظار . فقد كان شيخ البلد الى أمس ، يلوح أنه قابض على زمام الامور ، لا يخشى انتقاضاً على سلطته من أي انسان

على أن دهشته انقشعت بمواجهة شيخ البلد الذى كان عليه أن يعجل بتيسير فراره ، فقال متوجهاً بالخطاب إلى اسماعيل بك : « مولاي !! قد هيأت لك سبيل النجاة ، فهلم إلى الباب . عجل ، فانى أسمع اختلاط أصوات الثوار بأصوات أتباعك وبصلصلة السيوف ، مما أرجح معه أن الفريقين اشتبكا يداً بيد في مبارزة ستدور الدائرة فيها بلا ريب على أعوانك »

فاجابه شيخ البلد ، وقد حفزه صدق حسه : « جزاك الله عنا خيراً يا مولانا ، لقد وهبتنا حياتنا . فالوداع ، ولا تنس أن توصد الباب وراءنا !! »

فأومأ الشيخ عبد الصمد برأسه موافقاً مذعناً . وما هي الا لحظة حتى كان شيخ البلد وصديقه ومماليكه قد اختفوا في تعاريج العطفة الموصلة إلى « الخيامية » وانطوى تحتهم بساط الارض . وبدل أن يخترقوا باب « المتولى » أو يعرجوا على شارع تحت الربع ، ثنوا الاعنة نحو شارع الدرب الاحمر . وساروا فيه غير بعيد ، ثم دخلوا حارة « الروم » وانطلقوا يلتوى بهم طريق هذه الحارة إلى أن صاروا في رأس الغورية عند سبيل « العقادين » ثم اخترقوا شارع الغورية

وكأنهم تعمدوا أن يضللوا من عساه يقتفي أثرهم من الثوار . إذ الاقرب إلى منطق الرعب أن يسلك الهارب من « الخيامية » . اخصر طريق تخرجه من المدينة . ولقد كان هذا ميسوراً ، لو أنهم سلكوا شارع تحت الربع إلى قنطرة « باب الخرق » التى اذا عبروها ومشوا قليلا صاروا خارج القاهرة العتيقة قاهرة الفاطميين . وما كان يفصل القاهرة وقتذاك عن النيل إلا بساتين ومساحات شاسعة من الارض الفضاء فيما يلي بركة « الازبكية » . هـذا هو الطريق الذى يسلكه من يريد أن ينجو من اخطار تتهدده لو بقى داخل المدينة . أما إذا كان الهارب من « الخيامية » قد طاش صوابه ، فالمتبادر إلى

الذهن أنه يندفع بلا وعي فيجتاز باب «المتولى» . . . لكن شيخ البلد تعمد تضليل أعدائه ، واختار طريقاً يبعد عن البال أنه يتجشم المسير منه

بل أمعن عثمان بك القازدغلي في تضليل أعدائه ، ذلك أنه لدى اقترابه من باب الفتوح عدل عن اجتيازه ، وسلك شارع «أمير الجيوش» . وعبر قنطرة « باب الشعرية » وسار في محاذاة « بركة الرطلى » ، ثم توجه إلى « باب الحديد » ، ومن هناك سار في طريق « بولاق » ، وفي بولاق ألقى عصى التسيار أمام جامع « السلطان أبي العلاء »

وترجل شيخ البلد وصديقه عبد الله كتخدا عن جواديهما وعهدا بهما إلى المماليك ، ثم التفت فقال لهم وهو يخلع حذاءه عند باب المسجد :
« حذار من عصيان أوامر عبد الله بك !! اصدعوا بما تؤمرون ولو هلكتم »

قال هذا واعطى حذاءه للخادم الموكل بباب المسجد . ودخل بيت الله لائذاً برعايته

في بيت الله ؟ !

بكر أهل بولاق إلى ساحل النيل ، وأنشد العمال منهم أناشيد تسمع فيها نغمة التمرد والثورة والسخط أحيانا ، وأحيانا تصافح أذنيك الحان مرحة مستهترة تتجه في مجموعها إلى الرضا بالقضاء والقدر

هذا حمال يحط عن المراكب الشراعية ما جلبته من غلال وحبوب جاءت من ريف مصر وصعيدها ، وذاك تاجر يخزن صنوف البضاعة من بهار وأقمشة وبن انحدر اليه من دمياط ، وذلك صاحب بغال وحمير يعرض على التجار وغير التجار نقل البضائع والغلال إلى القاهرة

وقد لاحظ الناس أن أحداً من المماليك لم يظهر يومئذ فى هذا الثغر النيلى . لماذا تخلف هؤلاء السادة هم ومواليهم ووكلاؤهم في القاهرة ، ومن عادتهم غشيان بولاق كل يوم لتسلم ما قد يكون بعثه اليهم الكشاف من خيرات وأرزاق تدرها أراضى الاقطاعات ! ؟ ثم لماذا تخلف أمين الشون ومدير الجمرك . . ؟ ! ان مراكب عديدة لاذت بالشاطىء وأرخت القلاع ، وانتظرت قدومهم ليستنزفوا محتوياتها على طريقة القرصان

استراح الناس هذا النهار من زهو السناجق ، وغرور اتباعهم ، وافتتان من ينتمي اليهم ولو من طريق العبودية . وبطبيعة الحال ، ذهبوا يتساءلون عن السبب الذى احتبسهم في القاهرة ، وذهبوا في تعليله كل مذهب

جهل الجميع السبب إلا رجلا واحداً عرفه ، لا برجم الغيب ولكن بمنطق الحوادث . هذا الرجل هو الشيخ « حسن الجبرتى » أحد علماء الأزهر الذى ميزه الغنى عنهم ، كما ميزه تعاطيه التجارة صناعة أخرى فوق صناعة العلم . كانت له في بولاق حوانيت ، وكان له فيها قصر يشرف على النيل ،

ووكالة تعرف بوكالة الكتان . وكان صديقا حميما لشيخ البلدعثمان بك ، صحبه في الحج ثلاث مرات ، وقرأ عليه كبير السناجق كتاب « تحفة الملوك » و « المقامات الحريرية » . فعند من يكون الخبر اليقين ، أو ما يشبه اليقين ، إن لم يكن عند هـذا العالم الارستقراطي . . . ؟ ! وكأن هذا العالم قعد عن الذهاب إلى القاهرة على جاري عادته ، توقعاً لمكروه ! !

لعل عند الشيخ « حسن الجبرتي » جلية ماغم على الناس ؟! عساه أن يكون في أمسه قد لمح في الأفق نذيراً ، فآثر العكوف هذا النهار في بولاق يعالج مساومات البيع والشراء ؟ ! ان جماعة من معارفه هناك توافدوا عليه فوجدوا عنده الشيخ العريشى والشيخ محمد الأمير والشيخ العروسي ورهط من تلاميذه يلازمونه في روحاته وغدواته أينما حل وسار . قد تبنام فكريا وعاملهم مثل ولده « الشيخ عبد الرحمن الجبرتى » سواء بسواء ، وربما فضلهم عليه في شئون عدة

قال قائلهم : « أصبحنا اليوم ولم يشخص إلى بولاق سنجق أو كاشف أو وكيل من وكلاء البكوات المماليك وكتابهم ، ولم يحضر أمين الشون ولا مدير جمرك بولاق كما هو المعتاد في أوقات الهدوء وركود الشغب . فهلا علمت أن فتنة عصفت بالقاهرة ، لأننا فى أيام تتقلب أحوالها بلا انقطاع »

فنظر الشيخ الجبرتى إلى محدثه برهة كالذى يؤمن على كلامه ، لكنه يضن عليه بأسرار يعلمها . وأراد أن يصرف الحديث إلى الغموض والابهام ، ففي الغموض ما ربما تطمئن له الخواطر ، وفيه باعث على هـدوء النفس ، وركود الهواجس والأوجال ... قال الشيخ الجبرتي : « صرنا كالذى يتوقع الشر كل حين فلم تعد تروعنا مصارع أولئك السناجق ، كأنهم خراف ترحب بهم سكين الجزار . . . كثرت مذابحهم حتى الفناها ، ومن غير المألوف أن تطمئن بنا الديار عهداً مديداً . دائماً يقع ماليس فى الحسبان ، وقلما تخطىء الظنون والهواجس »

قال ذلك والتفت إلى الشيخ العريشي وطلب منه أن يقيس الظل في أقرب مزولة ، ثم يعود فينبئه هل حانت صلاة الظهر ؟ ! وما انطلق العريشى ، حتى

أقدم على الوكالة قادم ، أعلن ان فارساً ملثما في كوكبة من المماليك وقف به المسير عند جامع أبي العلاء : فشرع الحاضرون يتسللون واحداً واحداً ، وكل منهم قد حفزه حب الاستطلاع ، فخرج ينشد الخبر اليقين من أولئك الوافدين

تفرق الجمع الذى كان قد توافد على الوكالة ، وبقي الشيخ الجبرتى في صفوة تلاميذه . فضيق ما بين حاجبيه الكثيفين ورفعهما قليلا ، فغارت تجاعيد جبهته ، ثم أسبل جفنيه وقبض على لحيته ، وانطوى على نفسه لحظة كالذي يفكر في حل معضلة وهو يقظان ، ثم استفاق من تأملاته القصيرة ، وقال :

« هذا الفارس الملثم ماخطبه . . ؟ ! ان قدومه قد أنبت في صدري شكوكا وأكد لي أن مارجحته قد أصبح يقينا . فليلة أمس سمرنا بدار شيخ البلد . فوفد علينا رضوان بيك الجلفي ، فهش له وأجلسه عن يمينه ، وأمر الخادم أن يملأ له « الشبك » تبغا ويشعله

« قال رضوان بك : جئتك مستشفعاً

« فابتسم شيخ البلد وقال : انت تعرف أنك أعز علي من ولدي الوحيد»

« فقال رضوان بك : ان ابراهيم بك ذا الفقار قد ساءت حاله ، فرجائي اليك أن تخلي بينه وبين مدينه شيخ العرب همام ولا تدع الحقد والغيظ يخلقان منه طاغية جباراً

« فحرك الكلام في صدر شيخ البلد غيظا مكبوتا ، وتبرقعت بشاشة وجهه بعبوس شفاف وقال : ان مدينه شيخ العرب همام يشكو من العسر والاجداب ، وقد هدد بالخروج عن الطاعة إذا حصل ابراهيم ذو الفقار من الباشا الوالى على فرمان يمكنه من وضع يده على البلاد المرهونة في برديس وفرشوط . وقد قال الله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » والصعيد الأعلى يمدنا بالغلال والسكر ، ولا نأمن إذا ثار عرب الهوارة أن تسفك الدماء ، وتنهب المحاصيل وينقطع الوارد منها عن القاهرة . وماذا يمنع ابراهيم ذو الفقار من الاقتراض ؟ ها أنت في نعمة ويسار . فاقرضه قرضاً حسناً

« فقال رضوان بك ، وبدأ الأمل في نجاح مساعيه يذبل :

— لوأنه استقرضني أي مبلغ ما تأخرت ، وقد عرضت ذلك عليه فابى

« فقال شيخ البلد :

— اذن هو ماض على عزمه ، لا يرعوي عن العناد !

« فتعجب رضوان بك من وصف ابراهيم شاويش بالعناد . وقال :

— ما اظن أن العناد إلا عند شيخ العرب همام. لقد مضى عامان على موعد السداد وقد أبى أن يدفع دينه ، واستمرأ المطل . والعدل أحرى أن يسود

« فانفعل شيخ البلد واحتشد الدم في وجهه ، واشتعل الغضب في عينيه وقال :

— ما هذا الكلام ! قلت لك ان شيخ العرب همام قد هدد بالتمرد إذا استحوذ ابراهيم ذو الفقار على بلاد برديس وفرشوط . أفاهم أنت ما اقول ! اقنعه بقبول قرض منك

« فالقى رضوان بك آخر ما في جعبته ، قائلا :

— كثير أن يهدد الحاكم واحد من الرعية مهما تكن عصبيته . أرى ان عرب الهوارة يحسبون أنهم فوق الشرائع ،وفوق العدل ، وفوق الرعية . اعذرني اذا ألححت عليك . . . لقد وسطني نفر كبير من أصدقاء ابراهيم ذي الفقار في الامر ، فهل لى ان أطمع في المزيد من أريحيتك وعطفك ؟

« فامتزج الاشفاق بالوعيد في صوت شيخ البلد ، حين قال :

— يا بنى انها دسيسة وخير لك ألا تتلوث بمآثمها

« فقال رضوان بك مبهوتاً :

— دسيسة ! ؟ ليس في الامر دسيسة ! ثق أن الأمر لا يعدو المطالبة باحقاق الحق ، ووضع العدل في نصابه

« فيئس شيخ البلد من فطنة رضوان بك ، وبدأ يشك في تغابيه ، وقال :

— لا . لا ! أنا اعرف ما هنالك . وقد بدأت اراك على نور جديد ، انك اليوم ...

« وحبس شيخ البلد بقية من كلام لم يفه به كراهة أن يتحرج الموقف . فقال رضوان بك :

— أشعر انى أهنت والترضية التى اقترحها هي ان لاتنحاز الى جانب شيخ العرب همام

« فأخذت شيخ حركة عصبية من قدمه الى مفرق رأسه ، وقذف بمنى يديه في الهواء ، وكان يقبض بها على مذبة ، فصفعت المذبة وجه رضوان بك وجرحت انفه ، فما زاد هذا الاخير على أن قال والاسى يخنقه :

— ما دمت لم تقبل شفاعتي فدونك وخصومك ، أما انا فسأكون على الحياد ، لا عليك ولا لك

« ثم ودع وانصرف ، وشيخ البلد في ذهول يشوبه الوجل من سوء ظنه بالعواقب »

ودق الشيخ الجبرتي يدا بيد ، واستأنف كلامه ، قال : « فراعني ذهول شيخ البلد ، وشاركته سوء الظن بالعواقب ، لان رضوان بك يتزعم فرقة من جنود الجيش تعرف باسم « فرقة العزب » وهم أقوى قسم من الحامية التى تحتل القلعة . ووقوف رضوان بك على الحياد يسلب شيخ البلد تأييد القوة الوحيدة التى يرهبها السناجق من خصومه ، فيظهر ان الفتنة تحركت هذا الصباح ! ! فعلى من دارت الدائرة ؟ ! ومن اي حزب يا ترى ذلك الفارس الملثم ؟ ! ومن عساه يكون ؟ »

وكان الشيخ العريشي قد جاء منذ هنيهة . فلما انتهى الشيخ حسن الجبرتى من حكايته ، أنبأه ان صلاة الظهر قد حانت ، فنهض الشيخ الجبرتي ونهض تلاميذه ، وقال : « هيا بنا الى جامع ابي العلاء »

وسارت تلك الفئة المعممة حتى جامع ابي العلاء ، فنزع الشيخ الجبرتى مركوبه عند الباب ، فتناوله منه الشيخ محمد الامير . وأوغل في المسجد

يا عجبا ! ماذا رأى الشيخ الجبرتى ؟ هنالك إلى جوار المنبر جلس شيخ البلد عثمان بك القازدوغلى وبجواره عبد الله كتخدا ، ووجهما الى القبلة

فدلف الشيخ الجبرتى الى المنبر ، ولما أشرف على شيخ البلد ، قال :

— السلام عليكم

وكان سلامه مفاجأة ، لكنها مفاجأة الطمأنينة تشرق في احرج الاوقات ، فاستوي عثمان بك واقفاً واستدار ، ثم قال :

— وعليكم السلام استاذى وسيدي

وتعانق الحميان !

وبارك العناق ترجيع الأذان !

ودوى في المسجد صوت يقول :

« الله اكبر ، الله اكبر »

بعد الغروب

أوقدت القناديل في جامع السلطان أبي العــلاء : عقد من النور الخافت حول المئذنة ، وشعل خابية على الباب ، وهنا وهناك قناديل في السقف معلقة . يكاد الظلام يلتهم الضوء ، ويصعب على المرء ان يتبين الاشخاص من بعــد . وكانت ظلال القناديل ترتمي على السجاجيد المتآكلة راقصة في مهب النسيم الذي انبعث من النيل لينا مخضلا منعشا

جلس الشيخ حسن الجبرتي في المحراب قبالة عثمان بك ذي الفقار واتكأ عبد الله كتخدا إلى المنبر . وقد عجب الشيخ الجبرتي من سكون عثمان بك وطمأنينة باله ، كأنه لم يفر هاربا من القتل وكأنه جاوز منطقة الخطر . وكان عجبه مشوبا بقلق على صديقه ، فبدا له أن يحذره عاقبة تهاونه في أمر نفسه ، وينصحه إما بالفرار العاجل وإما بالاختباء عنده في داره ، إلى أن يصلح ما فسد من علاقات بينه وبين خصومه

على الرغم من خفوت الضياء سطع الخوف في وجه الشيخ الجبرتي من المصير المجهول ! ! وما أوجع الاشفاق على حميم أثير بكل الود . وانعكس خوفه في كلامه ، وترقرق اشفاقه في لهجته

نظر الشيخ الجبرتي إلى نافذة فوق المنبر ، ثم هبط بنظراته الى عبــد الله بك ، وانثنى يرمق عثمان بك مليا ، ثم قال : « أنت الآن في حمى الله . ولقد اتفق ان سناجق لاذوا فيما مضى بأضرحة الأولياء ، فما اجترأ على اقتحامها أعداؤهم . لــكن إذا كانت بيوت الله حصونا ، ففي الامكان محاصرة الحصون . فالآن أرى ان نذهب إلى داري لتكونا بمنأى عن الخطر »

فابتسم عثمان بك ولم يخف عنه قصد الجبرتي وقال : « إذا كانت بيوت الله تحاصر ، فهل تظن ان بيتك لا يحاصر ! ؟ »

فخطر في ذهن الشيخ الجبرتي ان عثمان بك قد عول على الفرار ، فاستصوبه ، وقال يستحثه على الهرب ويشير عليه من طرف خفي بالخروج من الجامع على الفور : « إذن ، أنت تعتزم الفرار ، وأحسبه خير السبل للنجاة . انما للفرار فرص ، إذا ضاعت انعكست الآية »

فربت عثمان بك فخذه بيمنى يديه ، وتوجه بالكلام إلى عبد الله بك ، قال : « ماذا ترى في تلك النصيحة ؟ ! هل نعمل بها ، أم ننتظر حتى يجيء مملوكك من القاهرة ومعه ما بعثت في استحضاره من ثياب وفرش وزاد وخيام ؟ أما أنا فأفضل البقاء حتى يعود »

فاعتدل عبد الله بك في جلسته وداعب لحيته وأجاب بكلمات قليلة حازمة قائلا : « وأنا أيضاً أفضل البقاء ريثما يعود »

فباغتهما الشيخ الجبرتي بقوله : « واذا لم يعد ؟ ! »

فقال عثمان بك : « أغلب الظن انه يعود » فأمن عبد الله بك على كلامه مع زيادة في التوكيد ، قال : « بل انه سيعود حتما »

فاستغرب الشيخ الجبرتي من هذا التوكيد يصدر من رجل هو نفسه غير متأكد من امتداد حياته إلى صلاة العشاء ، إذ ماذا يمنع أعداءهما من الاطباق على بولاق في تلك اللحظة ، فقال : « من يدري ، لعل الاسباب التي عرقلت اقتفاء أثركما قد ذابت في فورة الفتنة . ويجوز ان تخلف ابراهيم ذي الفقار عن ملاحقتكما، يرجع إلى ان أحداً لم يفطن الى خط السير الذي اتبعتماه . فالحق انكما ضللتما الخصوم . على ان ذلك لا يعصمكما من الخطر . واني ليخيل لي أن أشباح الفرسان يطويها الظلام في الافق البعيد ، وأكاد أسمع صليلا غير مسموع »

فقاطعه عثمان بيك قائلا بلهجة الجزم : « يا أستاذي ، كل انسان يحذق صناعته . أنت جهبذ في العلوم والمعارف ، ونحن رجال حرب ونضال . ان ذا الفقار وأتباعه مشغولون بالسلب والنهب ، ثم هم لا يستطيعون الخروج ورائي من القاهرة ، لان لهم فيها خصوما آخرين يتربصون بهم الدوائر ، واذا زين لهم الشيطان تعقبي خلا الجو لمنافسيهم ، وانقضوا عليهم من الخلف ،

فينقلب فوزهم خذلانا،وابراهيم ذو الفقار أحصف من أن يقع في فخ يراه رأى العين . فثق اننا هنا فى مكان أمين ، وثق أيضاً ان أعداءنا لم يخلص لهم حكم البلاد ، وان أمامهم لأياما ملأى بالمتاعب والدسائس والدماء . فالاولى ان تقع السكينة في قلوبنا ، وليس كالثقة بالله أمان للخائف المرعوب »

فأشرق البشر في وجه الجبرتى وقال : « هل تسمح لى يا عثمان بك أن أضع مرهما على الجرح الذي فى أنفك ، لانى وان كنت لا أخشى منه عليك ، إلا ان الجروح في الاعضاء البارزة يستحسن تضميدها في أوقات السفر صيانة لها من الاتربة وفعل الجو »

فقال عثمان بك مستهتراً شاكراً : « هذا دليل جديد على رفق أستاذنا بنا ، غير أننا معشر الجنود لا نعتبر مثل هذا الجرح شيئاً مذكوراً . وكم من جراح أصابتنا في المقاتل ، فتركناها تضمد نفسها بنفسها . إلا أنه لا بأس من وضع المرهم ! »

فأخرج الشيخ الجبرتى من جيبه مفتاحا وأعطاه للشيخ العريشى الذي كان جالساً مع رفاقه خلف المنبر ، وأمره أن يستحضر حق المرهم الذي على الصفة ويعود على جناح الريح . فانطلق العريشي كالجواد وخزته بمهماز . والتفت الشيخ الجبرتى قائلا : « الحمد لله الذى أنقذ عنقك من سيف ابراهيم ذي الفقار »

فقال عثمان بك مصححاً كلامه : « قلت لك ان ابراهيم ذا الفقار ، قد أغري بقتلى ثلاثة من خصومى ، تبينت منهم خليل بك قطامش ، فكمنوا لى في الطريق . فلما خرجت من باب القلعة بعد انفضاض الديوان في ضحوة النهار ، انقضوا على أنا وعبد الله كتخدا ، فأهوى أحدهم على بسيفه فزغت منه ولم يمس الا أرنبة انفي ، مساً خفيفاً ؟ ثم أطلقت لفرسي العنان وتبعني عبد الله كتخدا يعدو على خطوات منى ، فسلكت حارة « مناو » الى رأس الحيامية ، وانحدرت الى ناحية الداودية . ومن هناك شققت طريقى الى منزلى . وكان ما حدثتك عنه من حصارى وفرارى ونجاحى في تضليل الأعداء عن خط سيري »

واضطر عثمان بك أن يقطع حديثه ، لأن عبد الله كتخدا الذى كان جالساً

وعيناه تراقبان باب المسجد ، صاح فجأة : « هاقد جاء مملوكي »

وبعد هنيهة كان المملوك في حضرة سيده ، فسأله عثمان بك : « ماذا صنع ابراهيم ذو الفقار ؟ ! وهل أتيت بكل ما أمرك سيدك باحضاره ؟ ! »

فقال المملوك : « انتظرت في دار صديق لى يقع في جوار باب الفتوح الى أن أقبل الليل . فانسللت تحت جنح الدجى ، ولم أذهب الى دار سيدى عبد الله كتخدا ، بل يممت ناحية المكان الذي دارت فيه رحى المعركة في قصبة رضوان فياهول ما رأيت وسمعت . . . ! ! »

فصاح عثمان بك يستفسره : « ألم تعرف اين ذهبوا بامرأتى وابني وطفلتي ، قل الحق مهما يكن مراً »

فقال المملوك وفي عينيه ونبراته بقية من الرعب : « ان زوجتك وأولادك قد حملهم « جن على » الى داره المطل على بركة الفيل ، أما الدار فقد رأيتها شعلة من النار . لأنهم بعد نهبها حرقوها »

فقال الشيخ الجبرتى : « هذا خبر نصفه يطمئن ونصفه يدعو الى الاسى . . . »

فقال عثمان بك : « بل النبأ مطمئن كله رغم هذه المحنة ، لأن عرضي قد أصبح مصونا في حمى هذا الفتى الغطريف »

فأومأ الشيخ الجبرتي برأسه علامة على الموافقة ، وقال : « انك تذكر شجاعة « جن على » وقد شهدت له بالثبات في النضال وكرم الخلق إذا قدرت له الغلبة . أتذكر فتكه بالعرب ونحن في طريقنا إلى بيت الله الحرام ، لما صحبتك عام ١١٥٢ هـ وأنت أمير للحج ؟ »

فأمال عثمان بك رأسه إلى الامام قليلا حتى لصقت لحيته بصدره ونكت حصير المسجد الذى بدا من ثقوب السجاد ، وقال : « أى والله ، اذكر ان ابراهيم ذا الفقار سافر تحت امرتي قائداً لفرقة من الجنود وكان معه « جن علي » هذا ، فبرز لنا جيش غير منظم من العرب وأمعنوا فينا تقتيلا وتجريحاً . وكادت الدائرة تدور علينا ، لولا ما أبداه هذا الشاب من براعة في توجيه الهجوم وحسن الدفاع . ولقد رأيته بعيني رأسي يفعل المعجزات . ومن المعجزات

أن يقهر فتى فى جنود قليلة جيشاً يفوقه عدداً ، وبالأخص إذا كان هو ومن معه من فلول جيش ممزق الأوصال »

فاستدرك الشيخ الجبرتى مافات عثمان بك وهو فى نظره بيت القصيد ، وقال مصوبا عينيه الى عثمان بك شأن الذى يوقظ في محدثه ذكريات راقدة : « وأظن انه سمى منذ هذه المعركة : « جن على » . وما أرى فيه من صفات « الجن » الا نهوضه بما يعجز عنه البشر . أما ما بقي من خلاله ، فبعضها ملائكى ، والبعض أرضى . فهو والحق يقال ، يجمع في شخصه الأضداد الثلاثة ـ الانسان والملاك والشيطان »

فلم يجبه عثمان بك بغير ايماءة الموافق ، لأن أحد مماليكه وقف قيد خطوة من مولاه وقال : « لقد أعددنا الأهبة لسفر طويل »

فنهض عثمان بك ونهض الشيخ الجبرتي وعبد الله كتخداء وساروا إلى باب المسجد ، وهناك تعانق عثمان بك والشيخ الجبرتي . فقال الشيخ : « في حفظ الله » فأجاب عثمان بك قائلا : « استودعك الله ، ولا تنس أن توصي « جن على » بزوجتى وأبنائى خيراً »

فتحشرجت الكلمات فى حلق الشيخ الجبرتى وقال : « انك تتحدث كأنك ذاهب لن تؤوب »

فتدحرجت دمعة كبيرة على خد عثمان بك وقال : « أحس انى لن أعود »
واحتوى الظلام من خاضوا عبابه الى المصير المجهول

مذبحة فى القلعة

هذه القلعة لم يغادر الزمن من قصورها وقاعاتها ورياضها غير أسوارها وأبراجها السامقة ، وغير مسجدها وبقايا قصر يسكنه الباشا التركى حاكم مصر ونائب السلطان ، وثكنات تحيط بالبابين الكبيرين : باب العزب وباب الانكشارية ،الاول تحرسه فرقة من الحامية التركية تسمى فرقة العزب وتحرس الثانى فرقة الانكشارية

الباشا في تلك الربوع الدوائر سجين ، قل أن يهبط إلى المدينة ملبياً دعوة السناجق إلى مأدبة تقام بقصر العيني أو سواه من القصور التي تطرز حواشى القاهرة . والاغلب ان الباشا يبارح القلعة إما معزولا، أو منفياً ، أو مقتولا ، أو منقولا الى منصب أرقى ـ يستدعيه السلطان الى الاستانة مغضوبا عليه ، او ينفيه المماليك البكوات ، أو يقتالونه ، وقد يأتى الامر من الصدر الاعظم بازهاق روحه

كانت الاوامر والنواهى تصدر من نائب السلطان الى السناجق ، لا من السلطان . فكان من حقه اصدار فرمانات بتعيين شيخ البلد وتعيين السناجق ، لكنه كان في واقع الامر ينفذ مشيئتهم اذا اتحدوا . فاما اذا اختلفوا ، فالباشا يصطاد في الماء العكر . يميل مع حزب على حزب ، وقد ينصر الحزبين جميعاً ، ويأخذ الاجر على تأييده ، يأخذه مضاعفاً قبل فوز المنتصر وبعد فوزه . أولا تزجى اليه الهدايا ، وأخيراً تدفع له جعال يتفق عليها ، ثمنا لالقاب البكوية التي يعطى بها فرمانات لمن يحلون مكان الراحلين من سناجق الحزب المدحور

على أن السناجق رغم ثورتهم ببعضهم البعض أمكنهم ان ينفذوا برنامجاً تقليدياً غايته أن يستأثروا بحكم البلاد تحت سيادة السلطان ، وعندما تسنح

الفرصة يشقون عصا الطاعة ويتحررون من سيادة السلطان . لهذا كنت تراهم يحرصون على أن يتجسس « الخازندار » أخبار تركيا عندما يذهب بالاموال والغلال المفروضة على مصر كل عام الى الاستانة . وامانة الخزانة وظيفة كبرى من وظائف الدولة تتقطع دونها الاعناق

والظاهر ان الفرصة سنحت للخروج عن طاعة السلطان بتوتر العلاقات بين تركيا وروسيا في عهد كاترين الثانية ، فاستصوبت الاستانة ان تضاعف الجهود لبذر بذور الخلاف بين السناجق . وحاول السناجق من جهتهم توحيد جبهتهم واتخاذ الأهبة لمواجهة العدو المشترك ــ الاتراك

وكان السناجق حزبين : حزب الاستقلال الذاتي وحزب الاستقلال التام . وكلا الحزبين بغيض الى تركيا ، لرغبتها المستعصية في ان تحكم البلاد حكما مباشراً . وكانت سياستها ترمى الى اذلالهم جميعا وخضد شوكتهم ! ولولا محاذرتها تمرد حاكم مصر التركي وثورته على الاستانة ، لابادتهم . لكنها ابقت عليهم ليقفوا في وجه الحاكم ويتحيفوا من نفوذه ، على أن تبث بينهم الشقاق عملا بمبدأ « فرق تسد » . وأسوأ ماكانت ترهبه تركيا ، هو ان يسحق احد الحزبين منافسه ، ويناصبها العداء . كذلك كانت تخشى اتفاق الحزبين عليها فقد كان المماليك يعتبرون تركيا غاصبة ، ويرون من واجبهم التخلص من نير الاتراك وتحرير البلاد من سيادة السلطان ، وقد شايعهم علماء الازهر والتجار والوجهاء والاعيان ــ شايعوهم سراً وساهموا معهم في تدبير وتنفيذ خطط ترمى الى تحقيق الامنية القومية . وبمضى الزمن تمصرت الحامية التركية المؤلفة من سبع فرق ، لان تركيا فترت عن تغذيتها بجنود جدد بسبب اشتباكها في حروب مستمرة مع جاراتها . فاندمج ضباط هذه الحامية وجنودها في الكتلة الشعبية ، وانقطعت صلتهم بوطنهم الاصلي . هذا الى ان افراد الشعب حلوا مكان من مات او تقاعد من جنودها وضباطها . وبالاختصار صارت الحاميات المعسكرة في القلعة وفي الثغور المصرية (الاسكندرية ودمياط ورشيد) كأنها جيش وطني ، يتعاون مع السناجق ويسعى لنفس الغاية القومية . مع أن تركيا كانت قد أقامت هذه الحاميات لحفظ التوازن بين الحاكم والسناجق

ولـكي تحول دون اتحادهما ودون أية ثورة يراد بها المروق من طاعة السلطان

أخيراً أوشك أن يقع ما تحذره تركيا . فقد كاد الاتحاد يتم بين الحزبين الـكبيرين ، فبادرت بارسال أحد أقطابها في السياسة « محمد راغب باشا » وأمرته ان يتبع خطة ترد الامور الى نصابها ان استطاع

* * *

اكتظت الساحة الفسيحة التى أمام الديوان بالقلعة ، ففى كل لحظة كان يفدعليها فارس يمتطي صهوة جواد عربي أصيل ـ قد غاص الفارس في الحرير والسلاح ، وغاص الفرس في سرج مزخرف بالذهب مزركش بالفضة

جميع السناجق ومماليكهم وضباط فرقتى الانكشارية والعزب والفرق الاخرى وقوادها حضروا صبح يوم من ايام ذى القعدة سنة ١١٦٠ هـ . ورابط الجند عند أبواب القلعة التى أمروا باغلاقها عندما تصدر اليهم الاوامر بذلك

انقسم السناجق فريقين : فريق احتشد عند دار المحاسبة ، وفي مقدمتهم خليل بك قطامش وعمر بك بلاط وعلى بك الدمياطي ومحمد بك قطامش . وفريق احتشد امام قاعة الديوان ، في انتظار الباشا الذي كان قد ارسل يدعو الجميع الى جلسة غير اعتيادية يقرأ فيها عليهم مرسوماً جاء من الاستانة

مضى وقت طويل ، ولم يخرج الباشا من قصره ويدخل الى الديوان من الباب السرى . فاضطرب خليل بك قطامش وشيعته . وكان خليل قد تولى أمارة الحج ، وسافر الى الحجاز في حراسة المحمل والحجاج ، هو ومماليكه واغلبهم من العبيد السود . فأساء الى الحجاج واغتصب اموالهم بأخس الوسائل ، وفي جملتهم حجاج من المغرب الاقصى ـ نكبهم في أموالهم وعرضهم لانتقام البدو وغارات اعراب الحجاز ، لانه لم يوزع الصدقات على شيوخ القبائل واستبقى لنفسه معظم غلال الحرمين . فمات من جراء جشعه خلق كثير ، وعاد حجاج المغاربة الى بلادهم فشكوه الى سلطانهم ، فبعث خطابا شديد اللهجة وجهه الى نقيب الاشراف والعلماء . فسخط محمد باشا راغب على خليل بك ، وأسر في نفسه ان يقتص منه ، متخذاً من فعلته الشنعاء ذريعة لاهلاكه هو

وأنصاره ومن يلوذ به جميعاً . سلط عليه منافسيه من الحزب الثاني الذى يتولى زعامته ابراهيم بك ذو الفقار ورضوان بك الجلفى

قال خليل بك موجها الكلام الى على بك الدمياطى : « لقد تأخر ابراهيم بك قطامش الدفتردار وما أحسبه قد عزم هذا اليوم على المجيء الى هنا ، وقد أقلقنى غيابه . ولماذا لم يحضر من العلماء والاعيان أحد ؟ ! »

قال هذا وألقى نظرة فاحصة الى ناحية الديوان ، ثم همس في أذن محدثه : « أرأيت كيف انطلق على بلوط قبان الى ناحية باب العزب مسرعاً وعاد على عجل ؟ ! »

فلم يشاركه على بك الدمياطي في قلقه ومخاوفه ، وقال في لهجة الذي يرى الامور تجرى على مألوف حالها : « دع عنك هذا الارتياب ، انك على الدوام تشك ، وعلى الدوام تكذب الحوادث ظنك . قل لى ، ماذا تم في مفاوضاتك مع ابراهيم بك ذي الفقار ؟ »

فمرت سحابة من اليأس على وجه خليل بك قطامش ، وقال :

— لقد تبرعت فاعتديت على عثمان بك عند ما نزل من القلعة ، لقاء مكافأتي باقليم جرجا أتعين عليه حاكما . وعدنى ابراهيم ذو الفقار بذلك ، وأقسم بالايمان المغلظة أن يبر بوعده ، وزكاه رضوان بك الجلفى

« فبعد فرار عثمان بك ذي الفقار إلى الصعيد ، ويأسه من المقاومة أمام اسيوط ، وانسحابه بمفرده من الميدان وهربه إلىالسويس ومنها إلى الاستانة ، أتيت أطلب حظى من الغنيمة فعينوني أميراً على الحج . ولما عدت من الحجاز ألححت في ضرورة إعطائي اقليم جرحا . فدس ابراهيم ذو الفقار لي عند الباشا . ومن يدرى ، لعل الباشا طلب اجتماع الديوان للنظر في التهم الموجهة الى . وهي تهم يصح توجيهها إلى كل أمير سافر بالحجاج والاموال والغلال إلى مكة والمدينة ... من منهم لم يعد من الحجاز عودة الفاتح بالاسلاب والغنائم ؟ ! من ذا الذى ... »

فقاطعه علي بك الدمياطي متهكما يقول : « عثمان بك ذو الفقار عاد من الحجاز أفقر منــه قبل سفرته اليه . لقد جوزيت على اغتيــاله جزاء سنمار . ولو صافيته لكوفئت من بره ورفده بأوفى نصيب »

فنهشت تلك الـكلمات خليل بك في قلبه ، ومشت في فؤاده مشى النار في الحطب الجاف . فعدل بالـكلام إلى موضوع زاد بلباله قلقاً . قال ولم يكتم لوعته : « لماذا أبطأ ابراهيم بك قطامش . انه يعلم أن اجتماع اليوم خطير ولست آمن أن يتفق على خذلان قضيق رضوان الجلفي وابراهيم ذو الفقار وحسين الخشاب وأنصارهم . أتراه آت في الطريق أم دهاه حادث ؟ ! »

قال ذلك وأرخى جفونه وأستغرق فى تأملات نمت معالم وجهه المتقلصة على أنها مزعجة. وظل على بك الدمياطي يرمقه على نحو ما يرمق الصبي تمثالا مسحوراً

وأفاق خليل من غفوة الذعر على كبكبة جواد يحمل فارساً يعرفه جيداً وهل يخفى رئيس الحرس ـ حرس الباشا ؟ !

فأيقن خليل بك قطامش أن ساعة الحساب قد دنت . فاعتزم أن يؤخرها قليلا ريثما يحضر ابراهيم قطامش ومعه بقية أنصاره ، ليشدوا أزره في الديوان

على قيد خطوات منه وقف رئيس الحرس « عثمان أغا أبو يوسف » وصاح قائلا بلهجة خشنة فيها كثير من التأنيب وغير قليل من التهديد : « لماذا لم تدخل الى الباشا ؟ ! »

فأجال خليل بك بصره في الساحة ، فوجدها ملأى كما كانت بالسناجق والمماليك والضباط ، لم يدخل واحد منهم الى قاعة الديوان . فعجب من سؤال رئيس الحرس وأحس خوفاً مبهماً يملأ قلبه . وقال مستفسراً :

« ولماذا لم يدخل السناجق ، انهم أقرب مني الى باب الديوان ؟ ! »

فابتدره « عثمان أغا » بقوله : « أنت المقصود بجلسة الديوان هذا اليوم أنت وبقية القطامشة والدمايطة ! ! ! »

فازدادت ريبة خليل بك من غموض الموقف . فأراد أن يكسب وقتاً فقال : « نحن هنا ننتظر ابراهيم قطامش وسليمان قطامش وبقية الصحب . ولا ندخل الديوان الا اذا حضروا »

فاحتد عثمان أغا في كلامه . وقال كمن يفوه بالانذار الأخير :

« أدخل أنت ومن معك ، لأن الباشا حضر إلى الديوان من الباب السري . أفهمت أم تتغابى ؟ ! »

فلم يصبر خليل بك على هذه الاهانة المقصودة ، وأمضه أن يخاطب بلهجة التهديد من رجل أقل منه مقاماً ، فقال : « إذهب لشأنك . إذا كنت تتكلم بلسان الباشا ، فما على الرسول إلا البلاغ ! ! »

فاستل عثمان أغا من غمده سيفاً قصيراً محدودباً ، وفي مثل لمح البصر أغمده في صدر خليل بك ، قائلا : « إذهب أنت الى جهنم »

فانطرح خليل بك على الارض صريعاً . وبلل الدم المسفوح من قلبه ثيابه وروى الارض التى طالما اخضلت بدماء أسلافه من المماليك

ونشبت معركة .. لا بل حدثت مذبحة! لأن حزب ابراهيم ذي الفقار كان قد استعد من قبل ، فجاء وافر العدد كامل العدة . وأصدر الامر الى الجند ان يغلقوا أبواب القلعة ــ كل ذلك بعلم محمد راغب باشا وسابق اتفاقه معه

بل ان محمد باشا راغب اشترك في المعركة . فقد خرج من خلف الديوان على جواد أشهب ، وانطلق يعدو وراء على بك الدمياطى ومحمد بك قطامش اللذين تمكنا من الفرار ... وما زالا يسابقان الريح حتى اختفيا في ثكنات فرقة «الجاويشية» ، وغابا عن الانظار . فاقتفى راغب باشا أثرهما ، ووجه جواده نحو تلك الثكنات . . . فلما اقترب من مكان اختفائهما ، برز اليه فارس من الثكنات ، ورمى برأسين تحت اقدام جواده الواحد بعد الآخر ، قائلا بصوت فيه البشرى والظفر : « اطمئن يا باشا . هذا رأس على بك الدمياطي ، وهذا رأس محمد بك قطامش »

فقال راغب باشا متعجباً من فعله : « ما اسمك أيها الكمي الباسل »

فقال باحترام وخيلاء : « كان اسمى فيما مضى « جن على » ، أما اليوم فيدعونني « على بلوط قبان »

فقال راغب باشا : « بلوط قبان يعني «مبيد اللصوص» ! ! ! حقاً انك تستحق هــذا اللقب . لقد قتلت لصين لا يقاس بهما قطاع الطرق ولا القرصان . . . سأ كافئك على بسالتك وولائك ! ! ! »

فدعا له بلوط قبان بطول البقاء ، ولوى راغب باشا عنان فرسه وقفل راجعاً إلى قصره . وأغمد السفاحون سيوفهم ونزلوا من القلعة

انزل يا باشا ! !

الليلة مقمرة ، وبركة الفيل شربت مياهها أضواء القمر فتراءت كالبلور المضيء ، فاضطجعت ظلال القصور والبساتين المحيطة بها فوق سطحها كعمالقة رقدت على الثلج . . وغرق كل شيء في السكون ، الا قلب ابراهيم بك ذى الفقار فقد اختلج قلبه بعنف وهم أن يثب من صدره أو ينفجر في محبسه بين الضلوع .

قعد ابراهيم ذو الفقار في مشربية تطل على بركة الفيل ، ينتظر قدوم على كاشف الملقب بيلوط قبان ، فأبطأ عنه . فساورته الوساوس ، وذهب يقول لنفسه : « هل اعتقله محمد راغب باشا ؟ ! أم أن حسين بك الخشاب عرف السر ، فاغتاله في طريقه الى القلعة ؟! لعل المفاوضات قد طالت ؟ ! من يدرى ؟! ويحتمل أن الباشا استبقاه عنده الى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، ضنا به على الأحداث المفاجئة ، فقد أحب هذا الفتى الحازم الجريء وأدناه وألحقه بجملة سماره وخاصة المقربين لديه ؟ ! ! »

واشتد قلقه ، فخرج من الايوان الى الحديقة يلتمس ما يصرف باله عن تلك الوساوس. وأوغل في البستان ، وأجال البصر هبوطاً وصعوداً ، فوقع على مئذنة جامع أحمد بن طولون ، فتذكر ماكان يجري بخاطره كلما رأى هـذا الجامع الضخم ومئذنته المنيفة ــ تذكر رغبته في التشبه بهذا الجنـدى التركي الذي اغتصب ملك مصر من الخليفة العباسي ، وأسس مملكة عتيدة لا صلة لها بدولة العباسيين الا الدعاء للخليفة على المنابر . لقد ثار احمد طولون على بغداد فلماذا لا يثور هو على الأستانة ! ؟ إن الدولة العثمانية قد جاوزت عهد الفتوة ودب في أنحائها وهن الشيخوخة ، فطمع فيها جيرانها من الروس والنمسويين والفرس ! ! فاى وقت أصلح لمصر من هذا الوقت للثورة على تركيا والتحرر

من سيادتها ؟ ! وطفق على هذا المنوال يوقظ راقد الذكريات

يا ويح الحقيقة ! ! حقيقة الحال أن مصر جحيم يتأجج ويتلظى بالدسائس والثورات ، تغاديها الفتن وتراوحها . وكيف تثور على تركيا ، وهي على نفسها ثائرة . وهيهات لرجل فرد أن يطهرها من عناصر الفساد ، ويجمعها وراءه تحت لواء واحد ! ! إن دون ذلك أهوال ! !

وكان النسيم العليل قد ترطب بقطرات الندى ، فنفذت رطوبته من ملابس ابراهيم الى جسمه، فكره أن يلحقه برد يقعده عن مجالدة خصومه الذين تأهبوا كما تأهب للنضال . فكر راجعاً الى الايوان ، فاذا به يلمح وراء خمائل الياسمين ، شبحاً مسيره أقرب الى الركض منه الى المشي . فهتف به : « من أنت ، أجب ؟ ! »

ووضع يده على قبضة سيفه ، فتوقف الشبح العابر ، وقال : « مولاى ، أنا على بلوط قبان »

فقال له ابراهيم بلهفة : « ما وراءك ؟ »

فتقدم على بلوط قبان من سيده، وقال : « كما توقعت يامولاي ! هي دسيسة من عثمان بك القازدوغلى . فانك تعرف أنه أصبح ذا حظوة عند السلطان ونفوذ عند رجال الدولة العلية . وقد أفهم الصدر الأعظم، أن محمد باشا راغب مالئك على السلطان ، وأنه أرخى لك العنان ومكنك أنت وحزبك من مرافق مصر فغدوت سيدها المطاع . وحال كهذه تؤدي حتما إلى شقك عصا الطاعة ، واستقلالك عن تركيا بوادى النيل . وقد أطلعنى على فرمان أرسل اليه سراً ، جاء فيه أنه قد آن أوان سحقك وتمزيق حزبك بالقتل والنفي . ومن الغريب أن الفرمان أوصى راغب باشا باصطناع حسين بك الخشاب وبذل المساعدة له على سحقك »

فقاطعه ابراهيم بك قائلا وهو يرغي ويزبد كالفحل الهائج : « لا بد من التعجيل بسحق الخشاب »

فقال على بلوط قبان : « هذا هو نفس ما أشار به راغب باشا »

فقال ابراهيم : « كيف السبيل والفرمان صريح ؟ ! على أي الخطط عول الباشا ؟ ؟

فقال علي بلوط قبان : « عول على الوقوف بجانبك ، ولكن من وراء ستار لأنه يعتقد أن استقرار الأحوال في مصر بحزم حاكم قوي مثلك ، يريح بال الدولة ويشد أزرها في نضالها مع الطامعين فيها . والراجح عند راغب باشا ، أن اعطاء مصر الاستقلال الذاتي ، لا يطغيها ولا يخرج بها عن طاعة الاستانة . بل الأمر على الضد من ذلك . . . إنه يعود بالجدوي على الطرفين »

فقال ابراهيم بك : « نعم الرأي ، هـذا والله نفس ما أفكر فيه . فاني وحزبي نشايع تركيا وقد سالمنا حزب الاستقلال التام وعقدنا معهم هدنة . . لكن ماذا نصنع بازاء هذا الفرمان السلطاني ؟ ! ألم يشر راغب باشا بما يحسن عمله ! ؟ »

قال علي كاشف : « انه ينصحك باثارة أنصارك وحشد فرقة الانكشارية التي تتزعمها وفرقة العرب التي يتزعمها حليفك رضوان بك الجلفي ، في ضحى الغد عند « سبيل المؤمنين » . ثم ترسل اليه مندوبا يطلب منه اصدار فرمان بالقبض على حسين بك الخشاب ، والا . . . »

فأتم ابراهيم كلامه قائلا : « والا عزلناه ، وبذلك يثبت للسلطان ورجال حكومته انه ليس كما أراد أن يصوره الوشاة . . . لله دره ! ! ! ما أكيسه ، لا شك أنه من الدهاة ! ! ! والرأي عندي أن نشرع في العمل من الآن »

فقال علي بلوط قبان : « تذهب أنت يا مولاي إلى القلعة لتستحث فرقة الانكشارية وتجهزها للمعركة . وأذهب أنا إلى رضوان بك لأبلغه بالنيابة عنك أن يصعد إلى القلعة ، ليحرض فرقة العزب ويسوقها إلى « سبيل المؤمنين » ثم أبلغ بقية السناجق أوامرك اليهم بالاحتشاد عند هذا السبيل »

فقال ابراهيم : « بورك فيك . هيا الى العمل ! ! »

وكان الليل قد ولى ، وفي أعقابه غرة الفجر تتلألأ ، فدوى في الفضاء صوت المؤذن يصيح من فوق مئذنة جامع ابن طولون : « حي على الفلاح ، حي على الصلاح ! ! الصلاة خير من النوم »

فتفاءل الاثنان بالأذان ، وتوضآ وأديا فريضة الصبح ، ثم افترقا ولم يطل افتراقهما كثيراً . فقد سطعت شمس الضحى فوق رماح مشرعة

وفرسان تخفق على أجسامهم أثواب الحرير الفضفاضة وتلمع سروجهم المذهبة وتتألق قوائم سيوفهم المزخرفة بالجواهر . . . وهناك وقع الاختيار على « علي بلوط قبان » للصعود الى راغب باشا في القلعة ومعه من كل فرقة ضابطان ومطالبته باصدار فرمان بالقبض على حسين الخشاب وشيعته ، فان أبى فقد استحق العزل

فبلغ « على بلوط قبان » هذا القرار الى راغب باشا ، فأبى قائلا : « كيف أضع في ايديكم رجلا يستظل بحماية السلطان وينعم بعطفه ورعايته ؟ ! هذا لايمكن ان يكون ! ! »

عند ذاك تقدم « على بلوط قبان » وطوى طرف السجادة التي يجلس عليها راغب باشا وقال : « انزل يا باشا »

فقال راغب باشا : « أما وقد عزلتمونى ، فارسلوا من تحبون ، لأعينه « قائمقام » ينوب عن السلطان ، الى ان يحضر الوالى الجديد »

فقال على بلوط قبان : « اني توقعت ذلك ، فاستصحبت ابراهيم بك بلفيه الذي اختاره مولاي أبراهيم بك ليكون قائمقام . وهو بالباب ينتظر . »

فأمر راغب باشا باستدعاء ابراهيم بك بلفيه، فدخل. فخلع عليه فروة سمور وكتب له فرمانا بالقائمقامية . وشرع راغب يتجهز للنزول على الفور من القلعة الى منزل « آقبردى »

وهبط على بلوط قبان والضباط والقائمقام بفروته السمور الى « سبيل المؤمنين » فلما رأى ابراهيم بك ذو الفقار فروة السمور ، تأهب للمعركة .. وكانت معركة غير حامية ، لأن حسين بك الخشاب فوجيء هو وأنصاره على غرة . فلم يقاوموا إلا ريثما حملوا ما خف حمله وغلا ثمنه ، ولاذوا بالفرار الى الصعيد . . . وعند الظهر اقتحمت بيوتهم ونهبت ! !

قضي الامر

لم ينتصف القرن الثامن عشر ، حتى أصبح الشعب المصري غالباً في ثوب مغلوب ... من ذلك أنه استرد أراضيه المغتصبة بطريقة غير مباشرة . وشرح ذلك : أن السلطان سليم اعتبر كل شبر صالح للزراعة في مصر ملكا شخصياً له ، ما عدا الاراضي الموقوفة على الحرمين وأراضي « الرزقة » المحبوسة على البر والاحسان أو الموهوبة من السلطان لبعض الناس ، يضاف اليها أراضى « الوسية » التى أنعم بها على « الملتزمين » . وكانت الاراضى تقتطع للسناجق الاربعة والعشرين ، وهؤلاء يستغلونها لحسابهم على شرط أن يدفعوا للخزانة العامة ضريبة فاحشة يذهب معظمها إلى الاستانة في صورة غلال وأموال ، ويصرف بعضها للحامية التركية والوالى ، ولا ينفق منها شيء على إصلاح الجسور واقامة المنشآت وما إلى ذلك مما يقيم الدولة على أساس مكين اقتصادياً واجتماعياً وعمرانياً وعسكرياً

وما كان السناجق ووكلاؤهم الكشاف يعرفون كيف تستغل تلك الاراضى ، ومن ثم كانوا يؤجرونها لناس يدعون «الملتزمين» ، يتولون شأنها ويستولون على محصولها لقاء مبالغ من المال والغلال يسلمونهـا للكشاف . . . وبهذه الطريقة آلت الاراضى الزراعية كلها إلى الملتزمين المصريين ، الذين استفادوا من تعاقب السناجق على الاقطاعات والاكثار من ابدال كشاف بكشاف ، فاحتووا على معظم الريع وطابت نفوسهم للسناجق بالقليل . وبذلك ادخروا ثروة الفلاح للفلاح . .

وقد احتفظ الفلاح بالكثير من مظاهر السيادة القومية . فمن بين صفوف الفلاحين برز علماء الازهر . ومن بين صفوفهم خرج جنود تألفت منهم

الكتلة الكبرى في الحامية التركية وجيوش السناجق الصغيرة. وأنجب الفلاحون كبار التجار في الغلال وسائر مايحتاج اليه الفلاح والفلاحة في الريف. وقوي شأن العصبيات في بيئة الفلاح ، حتى لقد حسب الحكام لهذه العصبيات الف حساب

هذا في الريف ، أما في المدن فقد استأثر أفراد الشعب بجملة الفنون والصنائع والحرف ، ومهروا فيها لاسيما في العمارة وصنع السلاح وأدوات الحرب وبناء السفن النيلية والبحرية . . واحتكر تجار القاهرة والثغور - دمياط ورشيد والاسكندرية والقصير - كافة الشئون المالية ، وجعلوا من القاهرة مركزاً تجارياً كبيراً ذا صيت. وكان لهم سمعة حسنة وعملاء في الشرق والغرب ، ورفعوا دمياط إلى مصاف الثغور العظيمة في البحر الابيض المتوسط . وقد اعترف السلطان بأهميتهم فأدمجهم في عضوية المجلس الكبير ، الذى كان مؤلفاً منهم ومن الأعيان ورجال الدين ورؤساء الفرق السبع التى تتكون منها الحامية التركية ، ومن السناجق . وكان هذا المجلس ينعقد برئاسة الباشا ، للبت في كبريات المسائل وتقرير السياسة الادارية واقتراح الاصلاحات الضرورية

المال كل شيء في هذه الدنيا ، والمال هو المال فيما مضى وفيما هو قائم ولاحق من الازمان . ومن كان المال كثيراً في حوزته ، وكانت وظائف الدولة تباع وتشرى ، فلن يعز عليه أن يظفر منها بما يشتهي ... وقد اشتهى اعيان القاهرة وتجارها أن ينخرطوا في سلك الضباط العظام ، فصاروا ضباطاً عظاماً في الحامية التي كانت تركية ثم تمصرت ، وأصبحت من العوامل الفعالة في اضعاف السيادة التركية وتمهيد السبيل لقطع العلاقة الضعيفة التى تربط القاهرة بالاستانة . وقد يسر لهم ابراهيم بك ذو الفقار قضاء لباناتهم ، فقبض الثمن وألحق معظمهم بفرقة الانكشارية وفرقة « المتفرقة » وفرقة « العزب » .. وكان التجار يصدرون عن رأي العلماء ويعملون بمشورة شيوخ الازهر ، فمن كان هوى أولئك الجهابذة معه أعانوه بالمال وأيدوه بنفوذهم

ولما مات ابراهيم بك ذو الفقار في صفر سنة ١١٦٨ هـ ، خلفه في مشيخة البلد قسيمه رضوان بك الجلفي . فأساء السيرة بتهاونه وانصرافه إلى

لذاته. فاضطربت الاحوال، واستحال الامن الذي وطده سلفه إلى فوضى عامة.
فاجتمع صفوة العلماء بصفوة السناجق في دار عبدالرحمن كتخدا بعابدين

حضر هذا الاجتماع السري : الشيخ حسن الجبرتي ، والشيخ علي العدوي، والشبراوي شيخ الازهر والشيخ الحفني ، وعلي بك بلوط قبان ، وحسين بك الصابونجي وعثمان بك الجرجاوي . وتشاوروا فيما يجب اتخاذه من التدابير لغل يد شيخ البلد

قال عبد الرحمن كتخدا : « إن رضوان بك قد أحيي ما اندثر من ليالى الانس في قصور الخلفاء العباسيين ، حين تدهورت خلافتهم ، وتشبه بهم في كل شيء – في الابهة ، وفي الاسراف والبذخ ، وفي الترف والسخاء بالالوف من الدنانير .. يضم مجلس سمره نخبة من الشعراء لمديحه والاشادة بما لم يصنعه وما يستحيل أن يضطلع به ويقوى عليه من جسيم المساعي وجليل الاعمال . وفي هذا المجلس ، يصدح المغنون وترقص الراقصات ويتبادل ندماؤه النكات ، من أول الليل إلى الصباح . وقد أدمن على ذلك مدة حياة المرحوم ابراهيم بك ذي الفقار ، فكنا نقول : نزق لا يلبث أن يذهب به وقار الشيخوخة . . فما راعنا ، إلا أن ايغاله في الكبر قد ألهب افتتانه بالقصف ومعاقرة المحارم . . فماذا يرى سادتنا العلماء ؟ ! »

فانبرى الشيخ العدوي يقول : « لقد نصحته ورب الكعبة مراراً وتكراراً . وذات مرة كدت أنزع لحيته ، فما ارعوى عن غوايته . . والرأي عندي أن تعزلوه وتنفوه الى الحجاز ، عساه ان يصيب الهدى هناك ويلهم الرشاد »

فقال الشيخ الجبرتي : « إن رضوان بك قد اقترب من القبر فدعوه يفعل ما يشاء ، وما علينا سوى نصحه وسوق الموعظة الحسنة اليه ، فانك لن تهدى من أحببت . . ولا أرى أن تعزلوه ، وإلا ثار أنصاره ، ووقعت فتنة نحن في غنى عنها . . على أن رضوان بك ، قد أفاد الأدب من حيث ابتغى حسن الاحدوثة . فهو قد أغدق المال على شعراء أفذاذ ، جاءوا بالمطرب البديع من الشعر والنثر – الشعر في صورة التواشيح والنثر في صورة المقامات . كذلك لا نكران في أنه شجع صناعة الموسيقى ، غناء وعزفاً وتلحيناً

« وهكذا قد يخرج النور من الظلام والحق من صميم الباطل .. فاتركوه وأعينوه على حمل أعباء الحكم .. فلن يعيش طويلا »

فقال علي بيك بلوط قبان: « نعم الرأي ، ولو لم يكن صعباً انفاذه . إذ لرضوان بك صنائع ترك في أيديهم مقاليد الحكم ، وهؤلاء لن يدعوا ما بأيديهم إلا أن تجري الدماء . . وليس هذا فحسب ، بل انه قد بلغني من ثقات ، أنهم يأتمرون بنا نحن شيعة ابراهيم ذى الفقار . فاذا لم نفتك بهم ، داهمونا في عقر دارنا ونكلوا بنا . . ومن أجل ذلك ، أرى أنه لابد من عزل رضوان بك والتعجيل بنفيه هو وأنصاره من حزب « الجلفية » ـ وأنتم لا تجهلون أن « الفقارية » والجلفية قد تنافسوا على الرياسة وتخاصموا على مشيخة البلاد دهراً . . ونحن اليوم أقوى منهم شوكة وأعز مكاناً . فاذا تواكلنا ذل منا السعيد الذي يفلت من ضربات سيوفهم »

فقال الشيخ الحفني : « ألا أسعى في التوفيق والصلح . . انى أكره المذابح وأشفق على البلاد من فوضى المعارك ؟ ! »

فقال علي بك بلوط قبان : « ان عزل رضوان بك ونفيه هو وحزبه ، هو الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء ، فليطمئن استاذنا من هذه الناحية »

فاستصوب المشايخ رأيه ، وأمن على كلامه عبد الرحمن كتخدا ، واردف حسين بك الصابونجي يقول : « ومن ذا الذي يخلف رضوان بك منا في مشيخة البلد ؟ ! »

فقال علي بك : « اكبرنا سناً واقدمنا في السنجقية »

فقال عثمان بك الجرجاوي : « كأنكم تعنونني »

فقال الجميع : « نعم ، نعم .. إياك نعني .. انت شيخ البلد منذ الآن . . . وبعد ايام يعقد الديوان الصغير برياستك »

فقال علي بك : « أخشى ان يحس رضوان ائتمارنا به فتتحرج الحال »

فقال عبد الرحمن كتخدا : « علينا بالكياسة في التنفيذ »

فقال علي بك : « قد علمتنا التجارب ان كل سر بين السناجق ، مصيره الى الذيوع »

فقال عبد الرحمن كتخدا : « لن يفشى احد منا سراً ، لكن طريقة التنفيذ قد تؤدي في بعض الأحيان الى الافضاء بالسر. على انه لماذا نتوقع الخيبة ولا نرجو النجاح ؟! »

فقال الشيخ الشبراوي : « نفذوا ما أشار به علي بك، وليكن ما يكون ... لقد اخلصنا النية واملنا صلاح الاحوال ، والله معنا . . . هيا بنا الى صلاة العشاء »

فقال عبد الرحمن كتخدا : « اذا حضر العشاء ، اخرت الصلاة ، فهلموا الى المائدة . . . »

ثمن الزواج

خرجت قصاع الثريد من الدار المجاورة للوكالة ، وما ان نزلت عن الرءوس الى الارض حتى تهافت عليها الجياع من الفقراء وذوي الخصاصة ، وأوسعوها نهبا واختطافا : فمن مغترف بكلتا راحتيه يضع في حجره قطع اللحم وينجو بها نجاة الذى عثر على لقية يخشى ان يظفر به صاحبها ، ومن قانع بالارز يحشو به فاه مدخراً لأيامه العجاف ما يصطفيه من لحوم الذبائح الثلاث التى أوصت جدة الشيخ حسن الجبرتي بنحرها كلما حل موسم وأهل عيد . وكنت ترى النضال على الثريد مستطيراً ، والنهم ذريعاً بقدر المسغبة . وفي الحق ان الليلة السابعة والعشرين من رجب كانت لفقراء القاهرة ومتسوليها غزاء وكانت سلوى

كان المنزل الذى يلاصق الوكالة ، قدنضدت في فنائه الكراسى والارائك المغطاة بالبسط والسجاجيد . وعلى الأرائك جلس المدعوون الى « الختمة » وليس بينهم الا عالم جهبذ جليل الخطر ، أو سنجق يتمتع بسلطة الحاكم المطلق

دأب الشيخ حسن الجبرتى على احياء هذه « الختمة » نزولا على ارادة جدته في وقفيتها . وذاك بر جرت به سنة أغنياء هذا العصر الذي تفاوتت فيه الثروات بحيث توزع الشعب في مصر إلى طبقتين ، احداهما قوية ثرية مرفهة ، والاخرى ضعيفة فقيرة فيها الوف المتسولين

وأيام المواسم والاعياد كانت تتيح الفرص لزيارات واجتماعات تجدد المودات بين أهل الطبقة العليا وتسعد المترفين بنزهات وأوقات سمر ولهو ، سيان في ذلك الرجال والنساء . وتتيح للفقراء أنساً مبذولا وشبعا وريا

علىفناء الدار الذى « بالصنادقية » توافد أصدقاء الشيخ الجبرتي ومعارفه لسماع الترتيل العبقريّ الذي ابتدعه الشيخ الحلاوي لآيات الذكر الحكيم ، وطمعا في ان تبتهج قلوبهم بتلحينه الجديد لمنظومة « مولد النبي »

في الصالة التى فوق هذا الفناء نضدت (شلت) وثيرة اتخذت من ريش النعام ، ومتكآت خلفها اضطجعت اليها جوار كالشموس جليبات من القوقاز وما جاورها ، جاء بهن الياسرجية الى سوق الرقيق القائم بباب الفتوح ، فأغلى أثمانهن عشاق الحظايا وأودعوهن مقاصير الحريم

توافدت السراري اللائي صار بعضهن زوجات وأمهات ، وبينهن زوجة عثمان بك القازدوغلي جالسة في الصدر عن يمين زوجة الشيخ حسن الجبرتى ـ شرعن يفدن على الدار بعيد صلاة العصر في حراسة العبيد والاغوات ملبيات دعوة صاحبة الدار التيطافت بقصورهن يوم أمس تذكرهن بواجبهن نحوها في حضور « الختمة » على نسق ما عودتها كل عام

بين فترات ترتيل القرآن تعشى الرجال بالوكالة على موائد نصبت ، بعد ان رفعت القصاع ونظفت الارض من فتات الثريد وحبات الارز التي سقطت عن غير قصد من الايدى الخاطفة

أما السيدات فكن قد أكلن قبيل المغرب . فأقبلن على زوجة عثمان بك يسألنها جلية ما انتهى اليهن بلسان الاشاعة : فانه قد راج في بيت شيخ البلد رضوان بك ان زوجها قد بعث يطلب رحيلها اليه مع ابنه وبنتيه . وقيل ان مولانا السلطان انعم عليه بمنصب رفيع فعينه واليا على « بروصه » وبعث الى الدفتردار والسناجق ان يردوا اليه ما استصفوه من أمواله . وكان عثمان بك قد يمم ناحية الصعيد حين غادر بولاق مساء اليوم الذى نكب فيه وأوغل حتى نزل بأسيوط . وهناك لحقت به تجريدة سيرها ابراهيم بك ذو الفقار للفتك به . فوجدت انه قد اجتمع حوله من السناجق المنفيين ومن مماليكهم جيش لا قبل لها بقتاله . فاضطر ابراهيم بيك الى الشخوص بنفسه في تجريدة أخرى الى اسيوط . فاستصوب عثمان بك النجاة بنفسه وأوصى عبد الله كتخدا ومن لاذ به من السناجق المنفيين في الصعيد ان يسعوا في

الصلح بين الفريقين . ثم جد في الرحيل حتى بلغ السويس وارتحل منها الى الطور . ومكث حتى وافاه محمد افندي كاتبه التركي قادما من القاهرة خفية بناء على خطاب بعث به اليه سراً . ومن ثم ذهب الى الشام وما زال يتابع المسير حتى بلغ الاستانة . فأكرم رجال الدولة العلية وفادته وتشرف بالمثول بين يدى السلطان محمود الاول فسأله عن السبب فى ثورة السناجق به ، فأجابه قائلا : « لكونى أقول الحق وأقيم الشرع » . فأمر له بقصر منيف يشرف على البسفور ووهبه الجواري الحسان . وطلب من الصدر الاعظم ان يرسل مرسوما الى حاكم مصر يقضى برد أمواله اليه . وقد حضر هذا الرسول ، ولما تمض على وفاة ابراهيم ذي الفقار أشهر قلائل . فاعتذر رضوان بك الذي كان قد أصبح بعد موت قسيمه شيخا للبلد : « بأن العامة هم الذين نهبوا دار عثمان بك ، وان غلة اقطاعاته قد ضمت الى بيت المال وفاء لما عليه من الديون للخزينة »

لكن قدوم رسول من قبل السلطان يحمل مرسوما برد أموال عثمان بك اليه ، قد أطلق الالسنة برجم الغيب . فمن زاعم ان المرسوم يشتمل على تعليمات للحاكم بعزل شيخ البلد تمهيداً لعودة عثمان بك ، ومن مدع ان الرسول ما جاء إلا ليرافق زوجة عثمان بك وأولاده الى الاستانة

هذه هي زوجة عثمان بك ، وها هن يستفسرنها عن حقيقة الاشاعة . وها هى تجيب بأنها لن تبرح القاهرة ، وان زوجها خيرها بين المجيء اليه ، وبين البقاء في القاهرة . اذ كان يعلم ان ولده أوشك ان يبلغ الحلم ، واذ ذاك ينفتح له الباب على مصراعيه . والحظ في مصر قلب بخلاف الآستانة ، فانها موصدة الابواب أمام المغامرين وأصحاب المخاطرات الا ان يقع ما ليس في الحسبان . وكان من رأيه ان يدع بنتيه في رعاية علي بك بلوط قبان . لثقته برجولته ونجدته . وفي القاهرة ، وليس في الآستانة ، يجدن الزوج الصالح

ليس بعجيب ان تروج الاباطيل والارجاف ، فهكذا طبيعة الاشاعة . وكان جديراً بالخبر اليقين ان يروج ، لولا ما جبل عليه الجمهور من قبول التمويه والشعوذة في رواية الاخبار

غطت الاشاعة على نبأ آخر هو الصدق الصراح . ذلك النبأ هو ان علي بك بلوط قبان خاطب زوجة عثمان بك في اقتران كبرى كريمتيهما بأحد مماليك رضوان بك الجلفي واسمه صالح الصغير ، وقال لها انه يتنبأ لهذا الفتى بمستقبل غني بالنفوذ والجاه ، وذكرها بأن المملوك في شبابه يرتقى السلم من أسفل درجاته : فأول الأمر يعين في جملة أولاد الخزنة الذين يوكل الى شجاعتهم ومضاء سيوفهم حراسة الخزانة ـ وكان كل سنجق يجعل من قصره مصرفا يخزن فيه أمواله المجموعة من ريع أرضه وأملاكه ، ومن النهب والسلب الذى تفنن فيه سناجق هذا العصر على صور فذة من الجور والدهاء والاجتراء على الحقوق والحرمات ـ فاذا جد الجد وقضت الضرورة أو قضت الأطماع ان يغامر سيده في إحدى المؤامرات ، أو يشتبك في معركة دبرها من لا يسعه خذلانه ، انحاز هذا المملوك الى جانب سيده . فاذا أحسن البلاء كوفيء بالسماح له بارخاء لحيته والتمتع بمنصب خازندار أو كاشف . وكاشف اليوم هو سنجق الغد . وللسنجق ان يطمع في زعامة زملائه والفوز بمنصب شيخ البلد . .

فاجابته زوجة عثمان بك بانها تعلم ذلك ، وانها لولا ثقة زوجها به لكانت اشترطت موافقته لأنه شرعا صاحب الولاية على ابنته ولهذا فهي توكله في أن يكون لابنتها والداً ثانياً

فشكرها علي بك على حسن ظنها به واثنى على زوجها ، وأكد انه يعتبر الفتاة كاحدى شقيقاته . وبذلك تم الاتفاق على تزويج صالح الصغير من كريمتها « احسان » . واستمهلها أياما ريثما تهدأ الأحوال

* * *

هدوء الأحوال هو الموضوع الذى دار حوله الكلام على موائد الطعام التي جلس اليها الرجال في الوكالة ، وبالاخص المائدة التى جمعت الشيخ حسن الجبرتي وعبد الرحمن كتخدا ، وعلي بك بلوط قبان

قال عبد الرحمن كتخدا وقد وقف ووقف صاحباه على الاثر ، ايذانا

با كتظاظ البطن بما لذ وطاب : « في غد سينتهي كل شيء وينزل رضوان بك من القلعة الى داره »

فنظر علي بك بلوط قبان متفرسا في محدثه كأنه يرتاب في تعجله بالبشرى وقال : « أغلب ظني ان رضوان بك لا ينزل من القلعة في الغد أو بعد غد . سيبقى هناك أسبوعا أو بعض أسبوع . لأنك تعرف كما يعرف كل انسان ان رضوان بك هجر داره مدة طويلة وهو صاحب لهو وبذخ . فلا بد من تهيئة قصره وتجهيزه بأنواع الرحيق واستجلاب الراقصات . وما أحسب ان ندماءه ، وشعراءه الذين يكتمل بهم مجلس أنسه ، الا قد تفرقوا في البلاد يأساً »

وتقدم عبد الرحمن كتخدا صاحبيه من الطسوت المعدة لتنظيف الايدي مما علق بها وقال وهو يغسل يديه : « لكنك لم تحدثني يا على بك ، عن زواج صالح الصغير . هل هو منتظر ام انقطع فيه الرجاء ؟ »

فقال على بك : « وأنت كذلك لم تحدثني كيف خدعت رضوان بك ، فاطمأن إلى النزول من القلعة إلى داره ؟ »

فتناول عبد الرحمن كتخدا منشفة وتناول على بك أخرى ، وطفقا يجففان أيديهما وقال الاول : « قلت له انك منا اليوم بمنزلة الوالد ، تظاهرك فرقة العزب ، ولك من حسن الاحدوثة ووقار الشيخوخة ما يضعك في مأمن من كل اعتداء على سلطتك . أنت سخي كريم ، ونحن السناجق ندعن لك بالطاعة والولاء . قد كذب الافاكون وأرجف الوشاة . وأطنبت في مناقبه ، حتى انخدع ورضي أن يهبط الى داره . وأظنه حن الى عهد التصابى وظمىء الى نشوة الكأس ، فوقع كلامى فى قلبه موقع القبول . والآن قل لى ، هل قبل صالح الصغير ماعرضته عليه ؟ ! »

فتأبط على بك ذراع عبد الرحمن كتخدا ، وتعلق الشيخ الجبرتى بذراع على بك . وسار ثلاثتهم فانتحوا من الوكالة مكاناً قصياً ، ودار الحديث همساً . فقال على بك : « زوجة من الكواعب الاتراب ، وخمسمائة دينار عداً ونقداً لماذا لا يقبل ؟ هذا فضلا عن كشوفية منيته بها في قابل الايام »

فقال عبد الرحمن كتخدا والشك في معالم وجهه يضطرب : « ما أحسب

صالحا الصغير يجيبك الى ما سألته ويخون سيده . أنه اثير عنده »

فمسح على بك لحيته بيده ثم قال : « وهل يجد عند سيده منية نفسه ! ؟ هذا الفتى يحب زينب بنت عثمان بك القازدوغلى . عشقها من النظرة الأولى. ومثل هذا الحب يستمكن . ويحفز صاحبه إلى ركوب الاهوال . . . اما الحياة واما الموت ، الحياة في جنب المحبوب والموت إن عز اللقاء ـ وقد يموت القلب ولا حياة لمن لا قلب له . . ومن هـذه الناحية فتنته عن سيده ، وسخرته في طاعتى »

فأنكر الشيخ الجبرتى أن يلتجىء صاحباه إلى استخدام الخيانة سلاحاً في قضاء المآرب . وقال :

« المـكر والخديعة والخيانة في النار . . . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم »

فلم يسع على بك إلا أن يقول دفاعاً عن سلوكه : « لقد خان رضوان بك عهد الرعية ، وأساء السيرة . . على أننا لا نخونه ونغرر به لذاته ، ولا شأن لنا بشخصه . انما مصلحة البلاد وهناء الأهلين واستقرار الاحوال ، هي بغيتنا ـ وفي سبيل ذلك يجوز الغدر وتجوز الخيانة والمـكر »

* * *

فقال الجبرتى : « انما الاعمال بالنيات .. ولـكن عدونى أنـكم لا تقتلوا رضوان بك »

فأكد له على بك أن القصد كل القصد هو إقصاء رضوان بك عن الحـكم ليس غير . . وقال : « إن ذلك أحزم وأدعى الى حقن الدماء »

فأمن على كلامه صاحباه ، وتقدموا جميعا يجففون أيديهم بالمناشف ، واستبقوا باب الوكالة يستحثهم الى الدار صوت الشيخ المحلاوى يترنم باهازيج غير مفهومة كما يفعل المنشدون حين يشحذون حناجرهم ، حتى اذا انشحذت أرسلوا الانغام الحانا عذبة تبعث في النفوس نشوة علوية . .

المملوك الخائن

خاض الفرس عباس الظلام خبباً يحمل سيده حق وقف به أمام قصر يشرف على بركة الفيل ، وكأنّ الحراس كانوا في انتظاره فسلم عليهم همساً ، وترجل عن جواده وتركه في رعايتهم وأسرع فاختاز الباب الكبير من « الخوخة » ومر من الحديقة الصغيرة الى قاعة الاستقبال وهي ايوان فسيح شامخ الجدران مشرق بنور القناديل والشموع . فاذا في صدر المجلس صاحب القصر وإلى جواره عبد الرحمن بك كتخدا قد اتكأ على وسادة وضعها على ركبتيه . وبدا على بك الكبير عن يمينه وراء الدخان المتصاعد من غليونه كالذكرى تمثلت للوهم

ومال من كان هناك من سناجق يتهامسون ، فعلم أنه موضوع نجوام وأدرك من أمارات اللهفة التي اشتعلت في عيونهم أنهم كانوا ينتظرون قدومه بفارغ الصبر . . . فارتبك ، ومن شدة الحيرة لم يقرئهم السلام ، وسمرت رجلاه في الأرض واسترخت أجفانه فعاد لا ينظر شيئاً وصار لا يسمع أى شيء

فابتدره على بك بلوط قبان في لهجة المؤنب يقول :

— كنا على وشك الانصراف يأساً من مجيئك

فاراد صالح الصغير أن يتكلم فما استطاع . وبماذا يجيب وهو لم يع حرفاً واحداً مما وجهه اليه على بك ؟ ! لكن الموقف ألهمه الصواب ، فقال معتذراً عن إبطائه :

— احتجزنى سيدى رضوان بك ، لأقوم على خدمته في مجلس أنسه وشرابه ، فلما لعبت برأسه الخمر تسللت وجئت خفية

فصاح به علي بك فزعاً :

— لعلك قد احتطت ألا يعلم بمقدمك إلى هنا إنسان ؟ ! إني أعرف رضوان بك ، إنه يحتسي من الخمر مقداراً يضل من نشوته لب الجبابرة ، لكنه حريص يضع نفسه في حراسة مماليكه الذين يحبونه لكرمه ولين عريكته . ثم هو يراقبنا من قريب وبعيد . فاصدقني القول : « هل احتطت لنا ولنفسك ؟ » .

فأجاب صالح الصغير بلهجة المطمئن :

— أحتاط ؟ ! ولماذا آخذ لنفسي الحيطة وقد فرقت النقود التى اعطيتنيها على مماليكه واشتريت ذمم جواسيسه ؟ إن معظمهم سيغادر القصر مع الفجر

فاعتدل عبد الرحمن بك كتخدا وقال :

— هذا أحسن احتياط . وإذن يمكننا في الغد تنفيذ الخطة . أتعرف أنت وزملاؤك ماذا نريد منكم بالضبط ؟ ان ما نطلبه منكم كثير ، والقيام به محفوف بالمكاره

فتعاقبت على وجه صالح الصغير صور مختلفة من الأمل والألم والاستفسار والتطفل ، وفطن علي بك الى حيرته فقال يحاول تسكين روعه وانقاذه من عذاب التردد :

— سنفي بوعدنا ما وفيت بوعدك ، ونجحت في القيام بما تعهدت به لنا . أنت ذكي وجريء ، والسعادة تشترى بثمن رفيع !

فأفاق صالح الصغير وسقط ذلك الكلام المعسول على قلبه سقوط الندى على الزهرة الذابلة ، وقال :

— انى اشتري السعادة بحياتي

فنهض علي بك ايذاناً بانفضاض المجلس ، وقال لصالح الصغير :

— تهيأ في الغد للقيام بما وعدتنا به . . . غداً قبل الظهر

فانصرف صالح . . . وشيع علي بك ضيوفه حتى باب الايوان . وهناك تواصوا بالحذر والحزم

***

أفاق رضوان بك الجلفي من نومه ، ولم يفق من نشوته . وقبل أن يفيق

من سكره ليلا أو نهاراً . وقل أن ينام ملء جفنيه أكثر من ساعات لاتزيد على خمس . ذلك لانه كهل . ولانه مصاب بهستيريا نكبته بعد وفاة قسيمه فى حكم مصر ابراهيم بك كتخدا

وفي الحق أن شريكه في مشيخة البلد كان ادارياً حازماً ، وداهية عرف كيف يرضي السلطان ورجال البلاط في الاستانة ، بالهدايا مرة وبالملق والزلفى مرة ، وبالدسيسة يدبرها ضد الوالى التركي في مصر مراراً . وكان من جملة هذه الهدايا واحد من الأغوات ، سر به السلطان وارتاح لأدبه وكياسته ، فجعله موضع سره كما جرت بذلك التقاليد في الدول الشرقية اذا هرمت وشاع في جسمها الفساد

ومضى ابراهيم كتخدا يستكثر من المماليك والاتباع ، ويفعل الخوارق لترقيتهم وتوزيع أكبر المناصب عليهم . يريدمن وراء ذلك أن يرثوه في الحكم لعل واحداً منهم ، يقوى على الترك فيطردهم من وادى النيل ، فتعود سيادة المماليك سيرتها الاولى على مثل ما كانت عليه أيام السلطان الغوري آخر ملوكهم

فأما رضوان بك فكان شريكا بالاسم ، لا هم له الا تشييد القصور واحياء حفلات ماجنة في قصره . لكنه كان كريماً يهب الشعراء بالالف ، فنهضت بتشجيعه دولة الأدب نهضة لا بأس بها

وكانت الليلة الفائتة أول عهده باستئناف ملذاته التى حرم منها أشهراً خمسة قضاها فى القلعة يشرف فيها على جنوده المتأهبة لصدغارة على بك وحلفائه الذين طمعوا في حكم مصر بعد وفاة مولاهم ابراهيم بك كتخدا . فان العادة جرت في مصر على أن يرث المماليك أسيادهم في كل شيء ، حتى في سلطة الأمر والنهي

وقد ظلت القاهرة في حالة تشبه الحرب مدة هذه الأشهر الخمسة . كل جندى راح يتزود من دنياه لآخرته استعداداً للرحيل إلى الدار الباقية . وتوقع الاهلون أن تدور رحى المعارك فى الشوارع والطرقات ، وداخل الدور أيضا

فلما توسط عبدالرحمن بك كتخدا في الصلح، حن رضوان بك الى مجالس انسه وشرابه ، فرضي ان تعقد بينه وبين خصومه هدنة يصلون خلالها الى

تسوية تكفل للجميع اشباع مطامعهم بالقدر الممكن

وكانت لحية رضوان بك قد تدلت ونفرت شعراتها الكثيفة وشاعت الفوضى في شعر رأسه ، فأمر بالحلاق فجيء به . وجلس على مقعد وسط الحديقة وباشر الحلاق مهمته

فما ان وضع الحلاق يده على رأس رضوان بك ، حتى انقضت قنبلة على القصر وانفجرت ، فذعر الحلاق وجمع رضوان عزمه وصاح بمماليكه قائلا :

ـــ لقد خدعني عبد الرحمن كتخدا . . خيانة ولؤم . . هيا الى سلاحكم دافعوا عن القصر ريثما أتأهب للفرار

لكن أحداً من مماليكه لم يكن حاضراً غير صالح الصغير ونفر قليل . فتولوا الدفاع عن القصر الذي احاطت به الجنود من كل جهاته وتساقطت فوقه القنابل تباعاً

ودخل رضوان بك الى حيث خزائنه ، فجمع ما أمكنه جمعه من دنانير وجواهر . ونزل الى الحديقة وركب جواده ويمم ناحية باب سري . ففتحه وهم بالخروج منه ، فأصابته رصاصة أطلقها صالح الصغير . فلم يتريث رضوان في الهرب رغم أن الرصاصة كسرت ساقه . فأطلق صالحُ الصغير رصاصة أخرى اصابته في فخذه ، لكنه فر لا يلوي على شيء

وفتح صالح الصغير الباب الكبير على مصراعيه فدخل السناجق ونهبوا القصر

* * *

دخل السناجق قصر رضوان بك ودخل في أثرهم على بك بلوط قبان وجعلوا أربهم في السلب والنهب بينما كانت ضالته التي ينشدها : رضوان بك حياً أو ميتاً . وأين منه ضالته ؟ ! لقد فر رضوان بك على ظهر جواده الى بلدة « أولاد يحي » من قرى الوجه القبلي عن طريق البساتين . فحسب على بك لفراره الف حساب . فهناك جملة من السناجق المغضوب عليهم . قد نفوا الى مدن عديدة ، وكم من مرة اتحد هؤلاء بزعامة سنجق قوي ، واغاروا على القاهرة فاحتلوها ، واستولوا على مشيخة البلد وغنموا متاع خصومهم

فشرع علي بك بعقد الاجتماعات ليلا ونهاراً . فلم يستقر الرأى على خطة يرضاها الجميع لأن طائفة استبعدت ثورة السناجق المنفيين لضعفهم وتشتتهم واستصوب فريق أن يبعث جاسوساً يدس السم لرضوان بك وفكر آخرون في مداهمته حيث يكون

وفيما هم في حيرتهم اذا بالقدر يحل لهم المشكل ويقطع شكهم باليقين

فقد جاءت الأنباء بأن رضـوان بك مات من جراحه في بلدة « أولاد يحي » فكان لهذا الخبر وقع طيب . واستوثق السـناجق من انهم تخلصوا من الرجل الوحيد الذي يعترض طريقهم الى المجد. وباتت مصر ريفها وصعيدها نهبة أطماعهم فشمروا لاقتسام الغنائم وتوزيع المناصب وما اكثر أوقات السلب والنهب في عهد المماليك وما أشد تقلب الحظوظ

ومن حق صالح الصغير أن يطالب بنصيبه الموعود

ففى جمع حافل بالعلماء والسناجق والاعيان وفدوا الى قصر عثمان بك الجرجاوى ، لتهنئته بمشيخة البلد ، والابتهال الى الله أن يوفقه ويسدد خطاه ، تقدم صالح الصغير حتى وقف أمام شيخ البلد . وأدى المفروض على مثله من تحية الرجل الذى يقبض على زمام السلطة بعد هدوء الفتنة . وقال بصوت رزين وجأش ثابت ، كمن يطالب بحق معترف به :

ـــ لقد أنجزت وعدى يا مولاي فتفضلوا بانجاز وعدكم

فالقى عثمان بك (الشبك) من يده وأرعد يقول :

ـــ أنت خائن !! قد قتلت سيدك !!! خذوه فاقتلوه جزاء أثمه وخيانته !؟

فاعترضه علي بك بلوط قبان ، قائلا في شيء من الحدة :

ـــ كيف تأمر بقتل رجل له كل الفضل في أن تتبوأ مشيخة البلد . لكأنه أعطاك السكين لتحتز بها رأسه

وقبل أن يفوه شيخ البلد بكلمة ، طفق عبد الرحمن كتخدا يؤيد علي بك قال :

ـــ وليس هو بخائن . ولا اجترح إثما . وإلا لكنا كلنا خونة آثمين

فألقم عثمان بك حجراً فسكت برهة ، وساد المجلس صمت القبور . وأنذر

الهدوء الشامل بأن العاصفة توشك أن تهب . فبادر على بك بلوط قبان الى إنقاذ الموقف ، فقال :

— اذهب ياصالح الى داري ريثما انفرد بعثمان بك ، وأطلعه على حقيقة حالك . إنه معذور ، إذ كان لايعرف كل شيء . وثق أنه سينحاز الى رأيي في ضرورة التعجيل بمكافأتك

فتنفس الحاضرون الصعداء وانزاح الكابوس من على صدر عثمان بك الجرجاوي . وخرج من المأزق ، من الثغرة التي فتحها على بك بكياسته ، وقال :

— إني أترك امر مكافأته الى الديوان

فقال على بك منتهزاً الفرصة وقد لاحت :

— هانحن مجتمعون في هيئة ديوان فاسمحوا لي أن أزكي صالحاً الصغير وأطلب له منصب الكشوفية ـ وأطلب أن نرقيه الى رتبة كاشف وليكن في جملة كشاف كبيرنا عثمان بك

فما شذ أحد الحاضرين عن الموافقة على هذا الاقتراح ، واغتبط به شيخ البلد ايما اغتباط . واستأنف على بك الكلام فقال :

— وكلكم مدعوون الى حفلة زواجه من زينب بنت عثمان بك القازدوغلى

وكان كلامه مسك الختام

الكلمة للسيف

أقلية عاتية، ترهق أكثرية فقيرة جاهلة بالوان العذاب ، ارستوقراطية من الاشراف على رأسها ملوك وقساوسة ورهبان تتكلم باسم الكنيسة ، قد تضافروا على ظلم الرعية في الداخل والخارج . ونفر من الطغاة ، جن جنونهم بالفتح والغزوات وفساقوا الشعوب الى المجازر ، طمعاً في الاحدوثة وبهرج البطولة وألقاب المجد التى يسخوا بها المؤرخون على السفاحين ، وأملا في أن ينبه ذكرهم بين الخالدين على حساب الارامل والايتام ومن تذرهم الحروب أشلاء حية

كذلك كانت الدنيا خارج مصر كما كانت داخلها ، وبالاخص في اوربا . العبودية مبسوطة الرواق والجور مبثوث فى كل مكان . حتى الطغاة كانوا عبيداً أخساء ـ عبيداً لأهوائهم ، أخساء لأنهم غرقوا في الخطيئة الى الذؤابة

أنجب القرن الثامن عشر أكثر من جبار عنيد . بنى مفاخره بالجماجم ، وكتب آية مجده بالدماء ، ومشى مختالا مباهياً على جثث القتلى ـ فردريك السفاح طاغية پروسيا . وكاترين قاتلة زوجها بطرس الثالث وواهبة الشعب الروسي وأراضيه لاحبابها وأعوانها ، وماريا تريزا ممزقة بولونيا بينها وبين فردريك وكاترين، وموطدة حكم الاقطاع ومضطهدة الوطنية الايطالية واليصابات فرنيس حاكمة اسبانيا دولة المظالم ومحاكم التفتيش والحكم بالسيف . وجيمس الثالث معطل الدستور الانجليزى بالرشوة وشراء الاصوات لحزبه المسمى « أصدقاء الملك » ففاز بتأييد البرلمان له في سياسته التعسفية ضد الولايات المتحدة وضد الحريات جميعاً . وناهيك باللويسين الخامس عشر والسادس عشر . فهما السبب المباشر في الثورة الفرنسية التى انفجرت من أجل الخبز والحرية وسيادة الامة

ولئن كان القرن الثامن عشر قد نكب الانسانية برعيل من الطغاة ، فى نفس هذا القرن انفجرت الثورة عليهم براكين لم تبق ولم تذر . ولئن نعتنا

القرن الثامن عشر بأنه العصر الذي أوفت فيه المظالم والمساوىء على الغاية وبلغت الذروة ، فهو من جهة أخرى يعتبر القرن الذى لقى الظلم فيه مصرعه. ففيه أعلنت حقوق الانسانية ، ونشرت الحريات أجنحتها على الشعوب ، وفشت الديمقراطية ، وتركزت العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس دستورى يستمد حياته وقوته من الامة مصدر السلطات

وككل نضال بين الحق والقوة ، خابت أمم وفازت أمم ، وجبنت عن خوض المعركة أمم . . . فبولونيا تمزقت وحدتها واقتسمتها النمسا والروسيا وبروسيا . . والولايات المتحدة ، ألقت عن عاتقها نير الانكليز ، واستقلت . . وايطاليا خلدت الى الظلم ، لانقسامها على نفسها وانشغالها بالاحقاد والمطامع الذاتية عن غاصبها . بينما أميركا الجنوبية تحررت من مظالم الاسبان الى الابد

الاستقلال وسيلة لا غاية . فالامم لا تستقل ليسوسها الحاكمون كما يرعى الذئاب الغنم . ولا يشرف الأمة أن شعبها مستعبد لاقلية منه تسومه الخسف وتحرمه ثمرات كدحه وجهاده ! وأى فخار هنالك في أن يتخم الاشراف والسادة من اولياء الامور ، بينما تموت الدهماء جوعاً !

ومن أظهر حوادث القرن الثامن عشر ، تجرد نفر من المفكرين لمناهضة الظلم ، بغى الانسان على أخيه الانسان . سيان أكان الظالم من ابناء الشعب أم كان أجنبياً . ومن ذا الذى ينكر أن ظهور كتاب العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسو — في سنة ١٧٦٢ — حادث تاريخي جليل لا يقل عن الثورة الفرنسية نفسها . والواقع أن روسو وفولتير وديدرو . لم يزيدوا على أن ترجموا عن آلام وأماني كل مظلوم مهضوم الحق . في كل عصر ومصر ... وقد نبعت أفكارهم من المعين الذي فاض بالثورة الفرنسية وبكل ثورة قام بها شعب أوجعه الاستبداد ... والا فان الكلمات والخطب والمقالات والكتب لا تحرك الشعب الى الثورة . انما يحركه للتمرد شعوره بالظلم واحساسه بأنه مضطهد محروم — من رزقه وهنائه وراحته . وهذا هو ما حرك الشعب المصري للثورة في منتصف القرن الثامن عشر . أولا بالكلام والاعراب عن سخطه ، ثم بالتأمل والتفكير فى أنجع وسيلة للخلاص من السيادة التركية وما فرضته من فوضى

وجور وجهل ، وما جره نظام الحكم من الخراب والظلام زهاء ثلاثة قرون

إن الطبقة المستنيرة المثقفة هى التى تشعر قبل سواها بوقع الظلم . وهي عادة التى تندب نفسها لنضاله . ومن ورائها الشعب المظلوم . وقد أحس كبار العلماء في الازهر سوء أثر الظلم فى القرن الثامن عشر . وعندما تألموا شرعوا يفكرون ويتشاورون في طرق الخلاص . . . وقد أدوا ما في عنقهم لامتهم . واستخدموا مكانتهم وانتفعوا بكافة الاسلحة التى في أيديهم ـ بنفوذهم الروحانى في القاهرة والاستانة ، وبزعامتهم الفكرية في الشرق ، وبدهائهم وكياستهم وبما وعظتهم به التجارب . . . فكانوا كالذي يرقع ثوباً مهلهلا . يتداعى منه جانب اثر جانب وتتجدد خروقه على كثرة الترقيع

بالامس اجتمعوا للنظر في أمر رضوان كتخدا . واليوم يجتمون للنظر في أمر شيخ البلد الذي خلفه ـ عثمان بك الجرجاوى

قال الشيخ الشبراوي يائسا : « بئس الرجل . لقد ظنناه حكيما قد حنكته السنون ، فاذا خطبه يتفاقم على كر الايام . وما رأيت هيئة خداعة كهيئته . ظاهره وقار وحشوه حمق . ما أراهم الا سيعزلونه »

فقال الشيخ الجبرتي : « بئس الرجل ، وبئس النظام ـ بئس نظام الحكم ، بئس الاسلوب المتبع في اختيار شيخ البلد . فهذا النظام هو الفوضى أو هو الباعث عليها . وهو السر فيما نكابد من جور وتخاذل وعجز عن النهوض باصلاح البلاد والعباد »

فقال الشبراوي شيخ الازهر وأصلح قفطانه وجبته وتهيأ للخروج من غرفته بالجامع الازهر ، لانه كان على موعد مع الخواجه الشرايبى كبير التجار: « نفسى تحدثني أن البلاد لا محالة صائرة الى ما تحب وتهوى . . لكن قل لى علام انعقد عزم السناجق »

فقال الجبرتي ، وجمع هو الآخر فضل ملابسه استعداداً للعودة الى داره ببولاق : «حضرت مجلس القوم صبح اليوم .فوجدتهم قد أبرموا الامر.فقرروا عزل عثمان بك الجرجاوى .. إلا أنهم اختلفوا فيمن يخلفه . فالبعض رشح على بك الغزاوى . والبعض رشح خليل بك الدفتردار . وبعضهم رشح حسين بك

الصابونجي .. فاقترحت عليهم ارجاء البت في ذلك الى الغد ، فوافقوا بالاجماع »

فهم الشبراوي بالقيام من على فروته . فاخذ الجبرتي بيده وأنهضه . فقال شيخ الازهر : « وعلى أي شيء عولت . وعولوا »

فقال الجبرتى : « كنت أنا وعبد الرحمن كتخدا قد تكلمنا في ذلك مع على بك بلوط قبان . فكره أن يتولى مشيخة البلد في هذا الأوان ، معتذراً بشره ذوى الاطماع من السناجق وكثرة ما يدبر في الخفاء على من عساه يتولى مشيخة البلد .. وقد عولت على العمل بما أشار به . ساعياً في تنفيذه جهدى ، متوسلا اليك أن تهبه بركتك وتمنحه تأييدك »

فقال الشبراوي : « لك ذلك . فماذا أشار ؟ ! »

فقال الجبرتى : « لله أبوه ! ! لقد أشار باختيار أكثر السناجق خصوماً وأحرجهم موقفاً ـ حسين بك الصابونجي . . فعارضه عبد الرحمن كتخدا زاعماً أن الصابونجى جرىء لدرجة الجنون . وله خطة عدائية لا يؤمن صاحبها »

« فرد عليه على بك بلوط قبان قائلا : « ان جرأته ستزيحه وتزيح سواه من الطريق . وبذلك ينقص عدد المتنافسين على مشيخة البلد »

فوضع الشبراوى يده على كتف الجبرتي، وقال وهو خارج الى صحن الجامع : « كأني بعبد الرحمن كتخدا يمكر بصاحبه ويحاول أن يضعه على حافة الهاوية ، أليس كذلك ؟ ! »

فسرى عن الجبرتي وسر لفطنة الشبراوى . وقال : « كأنك تقرأ ظهر الغيب . . ان عبد الرحمن كتخدا قد عرض أن يجمع حول علي بك بلوط قبان جمهرة من أقوى السناجق ليسندوه . . فرفض علي بك قائلا : « أنا لا اعتمد على تأييد فلان وعلان في الحصول على منصب شيخ البلد . انما اعتمد على سيفى »

فقال الشبراوى وهو يصافح الجبرتي مودعاً : « أسأله تعالى أن ينصر بهذا السيف دينه ، ويحفظ كنانته »

فقال الجبرتي : « آمين . آمين »

أشلاء في جراب

تعسجدت ذوائب الشجر بأشعة الشفق ، ورقصت أشباح غير مرئيـة في الظلال الـكثيفة . ووسط السكون الشامل تغنى « أوركستر » من العصـافير بالحان مؤتلفات وغير مؤتلفـات . وأسراب من الغربان على النخيل هتفت بأنغام منكرة . والشمس قد انغمس قرصـها الملتهب في الميـاه البلورية . وانعكست من سطح البركة ـ بركة الأزبكية ـ أضواء راقصة . وغمز النسيم صفحة الماء ، فتجعدت كمرآة متكسرة . وعبقت الحديقة مساء هذا اليوم من أيام أغسطس بروائح تسكر الاعصاب وتوقظ في القلب أهواءه

في الركن الغربى من هذه الحديقة تهدلت شجيرات العنب من كرمة شيدت على شكل مربع ، قد غزرت عناقيدها وطابت . ونسقت « الدكك» المفروشة بالحصير والسجاجيد على هامش الـكرمة . وفوق الدكك جلس خمسة أشياخ يتحدثون . كبيرهم بلحية كالقطن المندوف ، تضحك في محياه ومضـات نفس فتية ، وتشرق من عينيه دلائل الفطنة . والذي عن يمينه ملائكي البسمات كأنه روح تجسمت . والذي عن يساره تنم الخطوط الغائرة في جبهته على حياة قضاها في تأملات عميقة ، قد أسبغت النعمة عليه عافية قلما تتـاح لمن كان في مثل سنه المتقدمة . وأمامهم جلس شيخان : أحدهما لبق ذكي الفؤاد . والثاني يشبه أبطال المغامرات ، يخيل اليك أنه من شخصيات « الف ليلة وليلة »

الشبراوي شيخ الجامع الازهر يتصدر هذا المجلس الذي يجمع عصر كل يوم صفوة أهل الرأى فى مصر ، وغير قليل من حكامها . وعن يمينه الشـيخ الحفنى العـالم المتصوف . وعن يساره الشيخ حسن الجبرتي الذى يعتـبر المثل الاعلى للعقلية المفـكرة الناضجة في ذلك العصر . وقبالته جلس الشيخ الملباوي

تلميذ الجبرتي وكاتم سر «علي بك بلوط قبان» ، والشيخ القلعي نديم علي باشا الحكيم والي مصر إذ ذاك

هؤلاء الاشياخ كانوا قوة تترضاهم الاستانة . ويستشيرهم شيخ البلد في كل مهم من الامور . ويسعى اليهم السناجق بالتحف والهدايا . وقد تطلب منهم الوساطة عند السلطان فتقبل شفاعتهم ولا ترد لهم ضراعة . وكثير من الباشاوات الولاة تتلمذ عليهم واغترف من فيض علمهم وبادلهم وداً بود . وبألسنتهم كان الشعب يتكلم

قطع الشيخ الشبراوي الصمت بالتفاتة كاشفة ألقاها على الشيخ القلعي وقال:

— كيف وجدت الحالة في عاصمة الخلافة ؟

فمد القلعي عنقه وانحنى قليلا على فنجان القهوة فارتشف منه نغبة . وقال ونشوة البن تضحك في وجهه :

— بشر حال! الحكومة تتنازعها سلطات عديدة ، أضعفها سلطة الخليفة وأقواها سلطة الاغاوات ورجال القصر . ونفوذ الدول الاجنبية يقهر سياسة المصلحين من رجالات الترك . لا مال في الخزينة . ولا عدة عند الجيش . والاعداء تتألب على أطراف السلطنة . . الفرس من الشرق والروس من الشمال . . والفتنة في قلب الولايات نائمة توشك أن تستيقظ . . بالاختصار هي حال تسر الأعداء وتسوء المسلمين

فهز الشيخ الحفني رأسه ، وقال :

— ان الاتراك منذ دخلوا القسطنطينية تلوثت أخلاقهم بفاحش الروم . اختلطت أنسابهم عن طريق الجواري ، واستمرأوا رغد الحضارة ومناعمها وأعطوا المناصب الكبيرة لعلوج الروم الذين نبذوا دينهم واعتنقوا الاسلام . وبات كل همهم ولاية الحكم وجمع المال من الممالك والامصار بالعسف والجور . فأوشكت مصابيح الهدى تنطفىء . انظروا ماذا آلت اليه مصر في عهد الحكم التركي . . .

فقاطعه الشيخ القلعي ، وكان متكئاً على الدكة فاستوى قاعداً ، وقال :

— ان مولانا خاقان البحرين ، وملك البرين ، خليفة المسلمين ، السلطان

عثمان خان الثالث ، قد ولى على مصر رجلا حنكته التجارب ، ورققت حاشيته الخبرة بالدهر وبنيه . ولئن كانت الفوضى بالكنانة قد استطار شرها ، فان وقت خلاصها قد حان .. ان على باشا الحكيم قد اختاره الخليفة لوضع الامور في نصابها وبسط سرادق العدل على الاقليم

فانبرى له الشيخ الملباوى يتحداه . قال :

— ان يكن الباشا الجديد قد جاء على نية احقاق الحق وازهاق الباطل فمن ذا الذي ألهمه السكوت عن شيخ البلد ؟ ان سياسة حسين بك الصابونجى لا يستقر معها سلام ولا يتوطد بها عدل . نفى على بك بلوط قبان الى « النوسات » ونفى غيره الى « غزة » وقتل بعض أقرانه كأنه يريد أن ينفرد بالسلطان في مصر لا ينازعه فيها كفء من أنداده . ان هؤلاء لهم في القاهرة أعوان لن يصبروا على تشريدهم . وما أخصب القاهرة تربة للفتن والمؤامرات . ! وعظات الماضى القريب والبعيد من حقها ان تلطف من غلواء شيخ البلد وتنصحه بالقصد والاعتدال

فأمن الشيخ الجبرتى على كلامه وقال باسلوب المتحفظ العليم بما هنالك :

— بلغني أن حسين بك كشكش أبطأ في السفر الى منفاه في البحيرة . وأغلب الظن أنه ما برح في « مصر القديمة » كلما أركبوه السفينة تعلل بقضاء حاجة نسيها ، وعاد الى البر ومكث يوما أو بعض يوم . وتلك خطة الذى يتوقع حدوث أمر في حسبانه . ولولا أنه فاتك جبار لخفت أن يغتاله شيخ البلد

فمشط الشيخ الشبراوى لحيته البيضاء ، ونظر بكلتا عينيه من تحت حاجبيه الكثين ، وقال :

— ما اظن الباشا الوالى في غفلة عما ألمحه يجري وراء الستار

فقال الشيخ الحفنى كالذي افاق من غفوة وتنبه الى أمر غاب عن فطنته

— هل مولانا شيخ الاسلام يرى شيئا يجرى وراء الستار . انك بفضل مركزك ومألوف صلتك بالامراء السناجق ومنزلتك من الباشا الحاكم قد ترى ما لا يراه البعداء

فقال الشيخ الجبرتى :

— ان الستار مهتوك عن مساعي الامراء وتدابيرهم . والماضي مرآة الحاضر ، والحوادث ترادفت على مسرح القاهرة متشابهة أو كالمتشابهة

فأراد الشيخ القلعى أن يكون أصرح من رفاقه ، فقال :

— الشيخ الملباوى من الذين يلعبون أمام الستار على المكشوف. انه قادم من «النوسات» يحمل خطابات الى أصدقاء علي بك وانصاره بالقاهرة . وهو الذى كتب هذه الخطابات باملاء على بك ، وفي هذه الخطابات مجمل الخطة

فتساءل الشيخ الملباوى متجاهلا :

— وماذا ترى تكون هذه الخطة ؟

فقال الشيخ القلعي بلهجة التوكيد والاقتناع :

— خطة عودته الى القاهرة شيخاً للبلد ، بعد التخلص من الصابونجى . أليس كذلك يا استاذنا الجبرتى ؟

فقال الشيخ الجبرتي مبتسما :

— أجل وصلني خطاب من على بك يسألنى فيه عن أشياء معينة يعرفها كل انسان . الا انى لا اعرف من أمر الخطة التى يزعمها الشيخ القلعى أكثر مما يعرف هو . ولكني لا أستبعد أن على بك الغزاوى هو الذى يطمع في مشيخة البلد

ففرك الشيخ القلعى جبهته ، فعل الذي يجمع شوارد ذكريات تتصل بموضوع الحديث . ثم تهيأ للكلام وقال بعد أن تنحنح :

— انتهى الى علم الباشا ان حسين بك الصابونجى ، قبل شفاعة الخربوطلى وأبي شنب في على بك الغزاوي ، على ان يلازم دار نسيبه ، ببركة الرطلى ، لا يفارقها ولا يجتمع بأحد من أقرانه . فصار نسيبه الخربوطلى ، يجتمع سراً بعبد الرحمن كتخدا وخليل بك الدفتردار وراسل علي بلوط قبان في منفاه بالنوسات ، كما راسلوا جميع من بعثرهم الصابونجى في البلاد من سناجق عاملين ومتقاعدين

وعلم الباشا زيادة على ما سلف ، أن على بك بلوط قبان أشار على زملائه باستمالة أعوان الصابونجي ـ وبالاخص حسن كاشف جوجو لأنه منافق بطبعه

وأوصاهم أن يلوحوا لهم بالمناصب ويبذلوا لهم المال والهدايا مقدماً كعربون يدل على نية الوفاء

إلا أن الباشا قدر وقوع الخلاف بين المتآمرين على الصابونجى . ذلك أنهم ثلاث شيع تطمح كلها الى غرض واحد ـ بل ان افراد الشيعة الواحدة يبطنون لرفاقهم غير ما يظهرون

فتغابى الجبرتى ، وقال :

— زدنا عن الشيع الثلاث من فيض معلوماتك . . واشرح لنا ما بينها من اسباب الخصومة الخفية والخلاف المستور

فاخذت القلعي كبرياء الواقف على ما يجهله الجميع وقال بصيغة التوكيد :

— هناك شيعة على بك الغزاوي ونسيبه الخربوطلي وحسن كتخدا ابي شنب . وهناك شيعة خليل بك الدفتردار وزميله حسين بك كشكش حاكم اسيوط ، وقد كانت موالية للصابونجى الى ان استقدم كشكش من القاهرة ثم أمره بالسفر الى البحيرة منفياً ـ عند ذلك حل الجفاء محل الصفاء بينه وبين تلك الشيعة

والشيعة الثالثة ، يتزعمها سنجقان كبيران : هما على بك بلوط قبان المنفى بالنوسات ، وعبد الرحمن كتخدا

وقد أوشكت هذه الاحزاب الثلاثة أن تتحد ضد حسين بك الصابونجى شيخ البلد . . ويقال ان حسين بك كشكش تلكأ عن السفر الى البحيرة بطريق النيل ، لأن المفاوضات مع حسن جوجو قد نجحت . فلا يبعد والحال هكذا ، أن يعزل الصابونجى أو ينفى

وهنا حضر خادم وتقدم من الشيخ الشبراوي وأسر اليه كلمات ، فقال له الشيخ الشبراوى :

— دعهم يأتون الى هنا

فانصرف الخادم ، فسأل الشيخ الجبرتي قائلا :

— من هم هؤلاء الذين سيحضرون الى هنا ؟

فقال الشيخ الشبراوي بلا اكتراث :

— هم بعض مماليك حسين بك الصابونجي شيخ البلد . جاءوا ومعهم جمل فوقه جراب ضخم

فقال الجبرتي :

— أراهم جاءوا بهدية من شيخ البلد !

وكان مماليك شيخ البلد قد اقتربوا من مجلس المشايخ فاستدعاهم الشيخ الشبراوي . فأقبل عليه كبيرهم رستم وقبل يده . فسأله الشيخ ما خطبه وفي أي شيء جاء هو وزملاؤه . فقال كبير المماليك :

— جئنا الى مولانا فخر السادة ، نلوذ برحابه ونلتمس معونته وحمايته

فقال الشبراوى :

— أحسبكم فررتم من وجه سيدكم شيخ البلد

فقال كبير المماليك :

— بل فررنا نحن وشيخ البلد

فقال الشبراوى :

— من أي اعدائه فر ، والى أي النواحي توجه ؟ !

فقال كبير المماليك :

— هو معنا ! أتريد ان تراه ؟

فصاح به الشبراوى قائلا :

— بالطبع . بالطبع . ولكن كيف يكون معكم ؟ !

فتأخر رستم خطوات ، وأمر رفاقه المماليك أن ينيخوا الجمل . فأناخوه وحطوا عن ظهره جراباً من الجلد ، ثم تقدم ففتح الجراب وأفرغه على الارض، وقال مشيراً الى الجثة الممزقة :

— هذا هو شيخ البلد

هذه جمجمة مهشمة قد علق التراب بمعالمها وانعقد الدم عليها كسفا

وتلك اشلاء تمزقت عنها الملابس واكتست عقيقاً ذائباً

وهذا هو البطن مبقور خرجت احشاؤه

فذعر المشايخ ، ووجموا . . . وساد صمت القبور

قصة الجثة

أمر الشيخ الشبراوي رئيس خدمه باصطحاب مماليك حسين بك الصابونجي الى الاسطبل . حيث تغسل جثته وتكفن وتوضع فى النعش . فجمع المماليك الأشلاء ووضعت في الجراب وتعاونوا على حملها وساروا ناحية الاصطبل وتخلف كبيرهم . فأومأ الشبراوى الى كبير المماليك فجلس يحكي قصة الجثة قال :

— تعلمون أن الأمراء السناجق بعد وفاة سيدهم « ابراهيم بك ذي الفقار » وبعد فتكهم بحليفه وشريكه في الرياسة « رضوان بك الجلفي » وقع اختيارهم على « عثمان بك الجرجاوى » فجعلوه شيخاً للبلد . فانتهج خطة العنف وأساء معاملتهم واستبد بالأمر دونهم . ونا كد بنت البارودى زوج سيده « ابراهيم بك » وصادر بعض أملاكها . فشكت أمرها الى الأمراء ، فخاطبوه في شأنها فلم يزدجر وأراد أن يصادر قصرها الذى بباب الخرق ، فاجتمعوا بدعوة من عبد الرحمن كتخدا وعلي بك بلوط قبان ، في دار الاخير المطلة على بركة الفيل . وهناك استقر رأيهم على عزل شيخ البلد . فركبوا خيولهم وتوجهوا الى القلعة ليستصدروا فرماناً من «على باشا الحكيم » والى مصر بعزله وتعيين « حسين بك الصابونجى » بدلا منه . فتم لهم ما أرادوا . وتولى « حسين بك الصابونجي » مشيخة البلد . فاصطفى نفراً من الكشاف واتفق معهم سراً على التنكيل برفاقه الأمراء . ونفذ سياسة غايتها التخلص من أكفائه وترقية طبقة من الكشاف تأتمر بأمره وتذعن لأهوائه . وحسين بك الصابونجى كما تعلمون من الحزب المتطرف الذى يناهض السيادة التركية ويعمل على خلع النير التركي والاستقلال بمصر . فشتت شمل كبار السناجق وشردهم فى البلاد . فنفى الجرجاوى بك الى اسيوط ونفى على بك بلوط قبان الى النوسات .

وشرع في نفي « علي بك الغزاوى » وأخرجه الى جهة « العادلية » فشفع فيه كبار ضباط الحامية التركية . فألزمه أن يقيم بمنزل صهره ببركة الرطلى لا يخرج منه ولا يجتمع بأحد من اقرانه بتاتاً . وأرسل الى خشداشه « حسين بك كشكش » فأحضره من « جرجا » وكان حاكما عليها وأمره بالاقامة في « قصر العينى » وحظر عليه الدخول الى المدينة . ثم أرسل اليه يأمره بالسفر الى جهة البحيرة وأحضر اليه المراكب لتحمله على النيل فتلكأ « حسين بك » في السفر وتعلل عنه بضعة أيام

ستة من كبار الكشاف لازموه كظله ... بالنهار يجلسون بين يديه لتنفيذ أوامره ، وبالليل ينادمونه في مجلس أنسه . وهم : « حسن كاشف جوجو » و « قاسم كاشف » و « خليل كاشف جرجي » و « علي اغا المنجى » و «اسماعيل كاشف ابو مدفع » و «حسن كاشف»... فاستراح الى ولائهم ، وصاروا يوافونه بأخبار الدسائس والمؤامرات التى زعموا أن « علي بك بلوط قبان » يدبرها وهو في النوسات بالاشتراك مع « عبد الرحمن كتخدا » . اشاعات كثيرة كانوا يبهرجونها عليه ويزينون له قتل السناجق المنفيين . ومن جملة ما افتروه على « حسين بك كشكش » أنه تلقى خطاباً من « علي بك بلوط قبان » حمله كاتبه العربي « الشيخ الملباوى الدمنهورى » . قالوا ان هذا الشيخ سلم الخطاب الى « عبد الرحمن كتخدا » ليوصله الى « كشكش بك » ففعل . وهذا هو السر في تباطؤ « حسين بك كشكش » عن السفر الى البحيرة . فعزم شيخ البلد على التعجيل بابعاد « كشكش بك » ونفى « عبد الرحمن كتخدا »

من أجل ذلك اتفق شيخ البلد مع هؤلاء الكشاف على الذهاب بعد صلاة الجمعة الى قصره المعروف بـ « قصر الوكيل » بمصر القديمة ليقضوا فيه ليلتهم . ثم يشرف بنفسه فى الصباح على ترحيل « حسن بك كشكش » الى البحيرة والا قتله

وكانت ليلة شربوا فيها كثيراً وسمعوا فيها كثيراً وملأوا فيها ابصارهم من جمال الراقصات . وما زالوا على لهوهم حتى شابت ناصية الليل ، فهجعوا .

وفي الصباح نهضوا مبكرين ، واجتمعوا بالقاعة الكبرى ، واستفتحوا الحديث باستجداء شيخ البلد . فطلب كل منهم هبة قدرها الف ريال والف أردب من القمح والفول والشعير ، فاجيبوا الى سؤلهم . وحضر الفطور فأكلوا هنيئاً ، ثم رفعت الموائد وجاءت القهوة ، فخرجت أنا ورفاقي المماليك من القاعة وذهبنا الى غرفة منعزلة لنأكل . وما كدنا نلتهم بعض لقيمات ، حتى سمعنا وقع حوافر الخيل تركض . فقمنا مسرعين لنرى ماذا جرى . فاذا بنا نشاهد الكشاف يخرجون من باب القصر ، ويحكمون رتاجه . فعلمنا أن في الأمر سراً فأسرعنا نحو القاعة لنرى ماذا دها سيدنا ، فوجدناه جثة ممزقة على نحو ما رأيتم

وأخذتنا الحيرة فيما نصنع ، وأشفقنا أن نكون قد حوصرنا داخل القصر ، فأصعدنا واحداً منا الى السطح لينظر اذا كان الكشاف قد أوقفوا لنا نفراً من مماليكهم بالمرصاد . فنزل يبشرنا بأن ليس هناك من أحد يحاصر القصر . فجلسنا نتشاور : فبعضنا استصوب البقاء في القصر الى الليل لكي ندخل منزل سيدنا القتيل بجثته مستترين عن أنظار العامة ، ونشيع أنه مات على فراشه . وبعضنا استصوب حمل الجثة الى قصر القتيل « بالداودية » لغسله وتكفينه لان كرامة الميت دفنه . فاتفقنا آخر الأمر على وضع الجثة في جراب وحملها على هجين . وسرنا بها في اتجاه القصر وسبقنا واحد منا لينعى سيدنا الى زوجه . ففي منتصف الطريق التقينا بهذا الرسول راجعاً يقول : إن « حسين بك كشكش » قد احتل قصر سيدنا ثم إنه هو والكشاف رفاقه قد ذهبوا الى «علي بك الغزاوي » وعبد الرحمن كتخدا وسناجق من المتآمرين . فركب الجميع الى القلعة واستصدروا من الباشا فرماناً بتولية « على بك الغزاوي » شيخا للبلد . فجئنا بالجثة الى دار شيخ الاسلام

هذه هي قصة الجثة

قال ذلك رستم واستأذن في اللحاق برفاقه ليشترك معهم في نقل الجثة إلى مقرها الأخير . فأذن له الشيخ الشبراوى ، فقبل يده وانصرف

على بك الكبير

اليوم تلألأ نجم علي بك بلوط قبان في الأوج ، وأصبح أبرز الشخصيات في مصر ، بما تهيأ له من الصيت ـ وأى صيت أنبه من صيت يصيبه من يقيم عرساً كالذى أقامه ، يحتفل به السناجق والكشاف وضباط الحامية التركية ، والباشا التركي حاكم الكنانة ، وكبار العلماء وزعماء الشعب من تجار ووجهاء المدن والاقاليم ، وأفراد الشعب من جماهير القاهرة ودهمائها

عرس نادر المثال ذلك الذي أقامه على بك ، ابتهاجاً بزواج هانم بنت مولاه ابراهيم جاويش ، من مملوكه اسماعيل بك الذى قلده السنجقية بنفوذه ومساعيه لدى الباشا ـ نسقت الزينات في حى بركة الفيل ، في أيام وفاء النيل سنة أربع وسبعين ومائة والف . فبسطوا على ماء البركة الواحاً باشكال هندسية بديعة ، وفوق سطح الماء تبارى أرباب الملاهى والألاعيب وبهلوانات الحبل وسواهم من الحواة والقردانية والمشعوذين ، وعلى متن البركة اكتظ المتفرجون والباعة المتجولون ، حتي لكأن دهماء القاهرة وصبيانها قد حشدوا لانتهاب اللذات حشدا . . وسطعت القصور المحيطة بالبركة بأضواء القناديل وشعت على البركة المشاعل بأنوارها الوهاجة . . . في كل قصر وليمة ، وفي كل حديقة سامر للغناء أو سرادق للرقص . . . والخمر الرحيق قد انسكب منها فوق الارض اضعاف مارشفته الشفاه العطاش الى النشوة . . . أصوات مختلطة من غناء وصياح وهتاف ودعاء . . واستمر هذا العرس شهراً كاملا ، لم تشهد القاهرة أمتع منه بين أعيادها . . الدكاكين في كل مكان مفتحة ، والاسواق تضج بالناس ليل نهار ، والقاهريون كأنهم نسوا أو أنساهم السرور ان للجسم وقتاً للراحة ، وان النوم ضرورى لاستئناف النشاط واستقبال الحياة ببشاشة القادر الذي استجم القوة . . .

فلما انتهى الشهر ، كانت الهدايا والصلات قد ملأت قصر ابراهيم جاويش الذى اتخذه على بك مقرا له بعد وفاة مولاه ، هدايا من الاغنام والجاموس والسمن والعسل ، بعث بها وجهاء الاقاليم وحكام السنجقيات ، وهدايا من الحرير والحلى والجواهر ، وألوان من المسك والعنبر والكافور والند والعود بعث بها تجار القاهرة ودمياط والاسكندرية . . . وهدايا من اواني الزجاج والبلور وآلات الحرب من سيوف وخناجر وسروج ، ابدعها صناع سوق السلاح ، تقدم بها السناجق وكبار التجار المصريين وتجار الفرنجة

وبعد شهر المرح سار الموكب من بركة الفيل ، فاخترق شوارع القاهرة الرئيسية ، ثم عاد اليها . . وكان الموكب كالسفينة تشق طريقها في عباب من الناس — فما من امرأة أو فتاة أو غلام أو شيخ على أبواب الأبدية ، إلا وتمتع برؤية الموكب ودعا للعروسين بالهناء والرفاء والبنين ، ولعلى بك بلوط قبان بطول النصر وعز الشوكة ودوام التوفيق . . كيف لا وبدرات الذهب والفضة تتناثر على الجموع كالمطر ، وأبهة الموكب تسر أفئدة السذج وتفرح نفسية الجماعات . وقديماً استثمر الملوك أبهة المنظر ورواء الموكب وجلال الهيئة في كسب ثقة الجماهير وإخضاعهم لمشيئة الفرد .

مشى أهل الألاعيب والبهلوانات والجنك والطبول والمزامير في رأس الموكب . وجاء بعدهم الأعيان والجاويشية والملازمون والسعاة والأغوات وعليهم الخلع والتخاليق الثمينة . ومن خلفهم السناجق والكشاف ومندوب الباشا التركى يحيطون بشيخ البلد — على بك الغزاوى — ومن وراء الجميع سار على بيك الكبير راكبا ظهر جواده أمام عربة العروس التى سار بجانبها مملوكه محمد ابو الذهب وفي يده عكاز . . ومن وراء العربة أولاد خزانات الامراء ، وهم فتية مرد يلبسون الزرد وعلى رءوسهم الخوذ ، قد قبضوا باليسرى على القسي والنشاب ، وشرعوا المزاريق في اليمنى ، وتلثموا بالشيلان الكشميرية . وفي ذيل الموكب صدحت الموسيقى التركية ، وهي موسيقى الحامية — كما صدحت الابواق .

* * *

بالأمس أصاب علي بيك الكبير صيتاً جلاه في سماء مصر شمساً ، ورفع اسمه فوق الاسماء . أما اليوم فقد وقع الحادث الجلل والمفاجأة الكبرى . فاحرز في لمح البصر نفوذاً مديداً ودكتاتورية القيت بين يديه كما تلقى التفاحة في حجر نائم ببستان . . وشرح الحال أن عبد الرحمن كتخدا أحس أن شيخ البلد علي بك الغزاوى قد اتفق مع نفر من السناجق على اغتياله اذا أمكن أو نفيه على الأقل . . وقف على سر هذه المكيدة من حسن بك جوجو . فأسرها في نفسه ، وأخذ حذره ، وضاعف العيون والأرصاد على خصومه ، وانتظر الى أن تواتيه الفرصة . فلم تواته الفرصة وانعكست الآية ، اذ صدرت الاوامر من القلعة الى شيخ البلد بتقلد إمارة الحج والسفر الى مكة في خفارة المحمل والحجاج ، فتهيأ الغزاوي للرحيل وغادر البلاد بعد العرس العظيم باسابيع . وخلف وراءه شركاءه في المكيدة ، وعلى رأسهم خليل بيك الدفتردار . . فأحبط عبدالرحمن كتخدا المكيدة بمفاجأة ارتجلها ارتجالا ونفذها على البديهة . . والمرء إذا لاحت له فرصة للانتقام هبط عليه الوحى من الشياطين دراكا . . ذلك أنه أرسل سراً الى الحزب الذى يناصره من السناجق والكشاف يدعوهم للاجتماع في داره في صبيحة يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ١١٧٣ هـ. فلما تكامل عقدهم قال عبد الرحمن كتخدا : « لقد أبطأ على بيك بلوط قبان . . . أحسبه قد ألم به محظور ، فاني قد تركته أمس وهو متوعك المزاج قليلا »

وما انتهى من كلامه حتى نودى في الجمع أن علي بيك قد أقدم في حاشية من خاصة مماليكه . . . فنهض الجميع لاستقباله . وخرج عبد الرحمن كتخدا للترحيب به على باب القاعة الكبرى بقصره الفخم في عابدين . . . وساد السكون بعد لجب التسليم ولغط التحيات . فقطع الصمت صوت عبد الرحمن كتخدا يقول متوجهاً بالخطاب الى ضيوفه : « إن علي بيك الغزاوى شيخ البلد قد سافر الى الحجاز وترك الامر فوضى ، ولم ينته الى تعيين من ينوب عنه أثناء غيبته . . . إنه وضع السلطة مؤقتاً في أيدي أربعة من صفوة أصدقائه وسلطة شيخ البلد لا تتجزأ فضلا عن أن من أنابهم عنه لاخبرة لهم بشئون الحكم ، ولا ثقة فيهم ، والثقة والكفاءة عماد السلطة . . . ونحن المجتمعين

هنا بيدنا سلطة تخول لنا تنصيب شيخ البلد أو عزله ، إن مشيخة البلد منصب خطير ، وقد تضاءل على بك الغزاوى عنها ، وتعثر القزم في ثياب العملاق . ولا يليق لهذا المركز الكبير الا رجل كبير . . وعلى بك بلوط قبان رجل كبير . . فليكن كبيرنا . ولنسمه منذ اليوم « علي بك الكبير » وانا أول من يطيعه وآخر من يعصاه . . . فما رأيكم ؟ »

وكان عبد الرحمن كتخدا يعرف أنهم سيوافقونه ، لمكانته الموروثة ، ونفوذه الذى استفحل بقدرته على الكيد ، وبحذقه فن الدهاء . . . فوافقه المجتمعون بالاجماع ، إلا شخصاً واحداً عارض في هذا التعيين ، هذا الشخص هو « على بك الكبير . . . فانه رشق عبد الرحمن كتخدا بنظرة تنفذ الى الصميم ، كأنما يقول له بلغة صامتة : «أنت اليوم تقدمني وتضعني على الرءوس ، وفى غد تضربنى من الخلف . . تؤيدنى في الظاهر وتخذلني وراء الستار ، لتتقى شرى وتسلبني ما استحوذت عليه من نفوذ وصيت ومكانة !! » إلا أن مركزه تحرج بعد رفضه هذا المنصب الكبير ، فاضطر الى الاذعان والقبول ، وفي نيته أن يضع علاقاتهمع عبد الرحمن كتخداعلى قاعدة أخرى . لقد كانا حليفين ، وقد قطعا من الشوط مسافة تشعبت عندها الطريق . والاصوب ان يتجه هو على الاقل وجهة جديدة

ونهض الجميع وركبوا خيولهم وساروا الى القلعة ، حيث استصدروا فرماناً من الباشا بتعيين « على بك الكبير » شيخاً للبلد ، ومع فرمان التعيين فرمان آخر بنفى زعماء المكيدة إلا خليل بيك الدفتردار لانه وقف من تنفيذها موقفاً سلبياً . . . وفرماناً ثالثاً بتعيين محمد أبى الذهب سنجقاً وهكذا تم الفوز لعبد الرحمن كتخدا فعزل شيخ البلد ونفى شركاءه في المكيدة وعين على بيك بلوط قبان . . . وحصل على أثمن من هذا كله ، وحصل على أمنيته الكبرى وهي أن يضرب خصومه بسيف على بيك بلوط قبان ، ثم يتربص به الدوائر ، حتى اذا سنحت الفرصة انقض عليه فاغتاله وأصبح سيد البلاد بلا منازع أو شريك

العصفور في القفص

بسطت مصر سيادتها الروحية على الشرق ـ أو قل قبض الازهر على زمام السلطة الروحية . وفي بلاد كالشرق في عهد مضطرب كالذي نحن بصدده ، تخضع السلطة الزمنية في النهاية لارادة الروح . ينضاف الى ذلك أن الازهر كأنما ندبته الاقدار لحماية الثقافة العربية وآل اليه تراث الحضارة الاسلامية ولم يكن في البلاد التي أذعنت لتركيا بالطاعة ، معهد ينافس الازهر . فشخص اليه أبناء الامم العربية والاسلامية ، فرحب بهم ، وأفرد لكل جنس رواقا ، وثقفهم بالمجان

لم يفقد المصريون كل شيء بالفتح التركي ، فقد احتفظوا بسيادتين لم ينازعهم عليهما الغزاة : سيادة الفكر وسيادة الروح . ودان لهم الاتراك في كل ما يتعلق بشؤون العقل والدين . والسيادة العليا في الحياة للروح أولا وللعقل ثانياً

على أن علماء الازهر استردوا لمصر ما فقدته على كر السنين . فأخضعوا المماليك بتفوقهم العقلي ، وسلبوهم نفوذهم بكياستهم ، وبما لهم في الاستانة من نفوذ ، واستبدوا الى حد كبير بالسلطة الفعلية . فما انتصف القرن الثامن عشر ، حتى صاروا يملون ارادتهم على الاستانة ويوجهون حكومة بلادهم وجهة قومية ، بقدر ما يسمح به نظام الحكم القائم

آية ذلك ان الكفة التي كانت تضم العلماء ، ترجح لا محالة . ومن أجل ذلك كنت ترى المنافسة على صداقتهم وكسب رضاهم لا تنقطع ولا تفتر . ولم يغب عن فطنة علي بك الكبير ، اجتناب اسخاطهم واستشارتهم فيما جل وهان ، والعمل بنصيحتهم

وحدث بعد توليه مشيخة البلد ، انه تواعد مع الشيخ احمد النفراوي

والشيخ علي العدوى على صلاة الجمعة في مسجد السيدة زينب . فلما اقترب علي بك من « درب الشمسي » قادماً من قصره الذي ببركة الفيل ، في جماعة من مماليكه يتقدمهم محمد بك ابو الذهب ، هاجمه أحد الكشاف المدعو ابراهيم الشركسي فنشبت معركة جرح فيها الشركسي جرحا مميتا . وكانت العادة ان يذهب السناجق الى صلاة الجمعة مجردين من السلاح ، لكن ابا الذهب خالف هذه السنة ، ووافقه علي بك حاسباً حساب تقلقل الحالة وعدم استقرار الأمور ، قائلا : « العاقل من يستعد للمكروه قبل نزوله » ولهذا تسلحوا وخرجوا جميعا في أكمل عدة ، كأنهم ذاهبون الى ساحة قتال لا ساحة توبة وتوجه الى فاطر الارض والسموات . . وماكان ابراهيم الشركسى يدور بخلده أن على بك سيخرج هو وأتباعه مستعدين للطوارىء ، فاكتفى باصطحاب خمسة من مماليكه ، انقض بهم على موكب على بك — فانقض على هاوية ابتلعته

أهوى أحد مماليك على بك بحسامه على الشركسي يريد أن يحتز رقبته ، فصاح به « أبو الذهب » أن يكف ، فتراجع عنه . . . وتقدم أبو الذهب من ابراهيم الشركسى ، فابتدره يقول : « أجهزوا على ! ! اقتلني ياأبا الذهب وتقرب برأسي الى مولاك على بك . .ان دمى فيعنق عبد الرحمن كتخدا ، هو الذي أغرانى بقتل على بك ، ووعدنى جزاء فعلتى أن يكافئنى بسنجقية . . ووعدنى أيضا بزوجته الصبية نفيسة هانم . . وكنت على وشك النجاح ، فعاجلني مملوكه مراد كاشف بطعنة أحس أنها القاضية »

قال ذلك وخارت قواه ، وظهر دبيب الموت في سائر جسمه . فأمر على بك بنقله الى داره ، ليموت فيها . فقال أبو الذهب : « بل نأمر مراد كاشف أن يجهز عليه ونستريح منه . ثم تقضى قضاءك في عبد الرحمن كتخدا »

فقال على بك : « بل ننقله الى مسجد السيدة زينب . وهناك نطلع الشيخ الصعيدى والشيخ النفراوي وأعيان الحى ، على مكيدة عبد الرحمن كتخدا . لعلهم يصححون فيه رأيهم »

وكان خبر الاعتداء قد وصل الى مسجد السيدة زينب ، فهرع من فيه الى مكان المعركة وفي مقدمتهم النفراوى والعدوي . . . فوصلوا وقد شرع

المماليك في نقل الشركسي . فأقبل الشيخان على شيخ البلد يهنئانه ويستفسرانه جلية النبأ . . . فقص عليهم القصة ، فاستنذلوا مؤامرة عبد الرحمن كتخدا وقالوا انه يستحق النفى من البلاد . فقال على بك : « أصبتما . ان عبد الرحمن كتخدا قد سافر ليبرىء نفسه من تهمة الاعتداء على ، فالاوفق أن نجتمع الليلة في دارى لنبرم الأمر ... وغداً سيحضر عبد الرحمن كتخدا ، وسأدعوه الى الغداء معى . . . وأضربه الضربة القاضية »

فأمن النفراوى والصعيدي على رأيه . ومضوا الى المسجد لصلاة الجمعة

وفي الغد بعث على بك مملوكيه ابراهيم ومراد ، لدعوة عبد الرحمن كتخدا الى الغداء على مائدة سيدهما . . وأمرهما أن لا يعطياه أية معلومات . فأديا الرسالة ، وأخفق عبد الرحمن كتخدا في انتزاع السر منهما... فرأى أن يعرف حقيقة ماجرى من على بك نفسه.. وآثر أن يصحبهما الى قصر شيخ البلد فبلغه قبيل الظهر . . . فتلقاه على بك بالبشاشة كالعادة . وأمر بالقهوة فاحضرت . ودار الحديث هادئاً أول الامر وانتهى بعاصفة طاحت بعبد الرحمن بك كتخدا:

على بك ــ أنا سفكت دمه . وانت قتلته

عبد الرحمن ــ يا عجبا . . . وكيف ذلك ؟ !

على بك ــ انت أغريته بي ، فاوردته حتفه . ودم الحمل في عنق من يزين له مصرع الذئب

عبد الرحمن كتخدا ــ البينة على من ادعى

على بك ــ أمام نفسك أتهمك . وأنا اعرف بك منك . فما الحاجة الى البينات

عبد الرحمن بك ــ وهل يعقل أن تكون حليفى واحرض على هلاكك ؟

على بك ــ فى منطق الاطماع كل عمل غير مشروع جائز ، وكل معكوس معقول ، وقد حالفتنى تحقيقاً لاطماعك وسللتني سيفاً على اعدائك

عبد الرحمن كتخدا ــ اعدائي هم أعداؤك

على بك ــ الكيس يحذر من ستروا الضغينة بالبشاشة . وبرقعوا الكيد بالوداد المكذوب

عبد الرحمن كتخدا ـ ما هذا ؟ ! أراك تخلع البرقع وتلقى عنك رداء المصانعة . فهلا تريثت لتستوثق من الرمال التى تحت قدميك ؟ !

علي بك ـ سترى أينا المخدوع

عبد الرحمن كتخدا ـ لقد ضقت بك ذرعاً . . . أتهددني وورائي فرقة الانكشارية . والعلماء معى والاعيان والتجار يؤيدونني . والعامة تحبني ؟ . ان من ينصره الجند ورجال الدين ويوليه الخاصة والعامة ثقتهم خليق انْ لا يخاف السلطان . فانظر قوة غير هذه القوى تسندك

على بك ـ دع عنك ذلك . فهؤلاء الذين زعمت أنهم يظاهرونك ويقفون الى جانبك ، قد نفضوا من الولاء لك أيديهم

عبد الرحمن كتخدا ـ انا جعلتك شيخاً للبلد . وبيدى وحدي أمر عزلك وتشريدك

على بك ـ بل بيدي انا مصيرك

ثم اخرج على بك من جيبه فرماناً ، ونادى على كاتبه العربي الشيخ الملباوي وقال له : «اقرأ هذا الفرمان بصوت يسمعه عبد الرحمن بك كتخدا فهو فرمان بنفيه الى الحجاز استصدرته من الديوان وأمضاه الباشا »

فقرأ الشيخ الملباوى الفرمان . وعبد الرحمن بك كتخدا كالدمية لا يعى شيئا ... قد ذبلت عيناه وانصبغ وجهه بصفرة الموت ، وذهل عن حسه . . . وما زال ذاهلا حتى ايقظه قول على بك : « انت أسيرى . . . لا تقاوم ! ! ! وكنت اسمح لك بتجهيز نفسك وجمع متاعك لولا انني أخشى مكرك . . »

فارتج على عبد الرحمن كتخدا الكلام . واخذته رعدة من هول ما نزل به . فنادى على بك : « هيا به الى (الحاصل) حتى آمركم بحمله الليلة الى غزة »

فاحاط الحراس بعبد الرحمن بك ، وساروا به الى ناحية نائية من القصر وقد اخضلت لحيته من الدمع ومضى يتعثر في مشيته

في سجن الحريم

اجتمع الربيعان : ربيع الورد ، وربيع الخدود . وتحت نخلة باسقة قعدت ثلاث من بنات حواء : كبراهن كانت فى سالف الأيام فتنة ، فأصبحت عظة . وصغراهن كاعب حظها من الحياء والرقة يربو على حظها من الحسن . والوسطى دمية تأنق في ابداعها الخلاق العظيم

تحب كبراهن الصغرى حب الأم الرءوم لوحيدتها ، على رغم انها ضرتها فكلتاهما في عصمة الشيخ حسن الجبرتى . ومن عجب ان زوجته الست زنوبة هي التي زوجته من تلك الغادة . اشترتها من النخاس بمالها ، وتحرت ان تختارها على هوى زوجها . ثم اعتقتها وعقدت له عليها ، وزفتها له درة غير مثقوبة ، واصطفتها لنفسها خليلة . وقويت المحبة بينهما ، حتى خرجت عن المألوف وتسامت عن المعهود بين انسان وانسان ... الى عاطفة الأمومة

وقد كانت الصغرى واسمها اقبال قد جلبها النخاس مع أتراب ولدات ، بينهن هذه الغادة التي تشاطرها وضرتها العجوز ظلال النخلة، وكانتا شركسيتين زكا أصلهما وطاب مغرسهما . . . سرقهما تجار الرقيق تحت جنح الدجى ، وحملوهما الى الاستانة . . . فابتاعهما نخاس يتحف سناجق مصر وكبراءها بأنفس ما يجلب من الرقيق الابيض بجنسيه : الجوارى والمماليك . فاشترت زوجة الجبرتى صغرى الجاريتين. واشترى علي بك الكبير أختها في العبودية . وحظيت كلتاهما بالعتق وبالزواج ـ الصغرى بنى بها شيخ هو زعيم العلماء ، وبنى بالثانية شيخ هو زعيم الامراء ، وأسماها نفيسة هانم

واتصلت بين الجاريتين حبال الود بطبيعة المكانة والمركز ، وبطبيعة تآخي الغرباء . لا سيما اذا جاء الاغتراب نتيجة حادث يزعج المرء عن أهله ووطنه بسوط النخاس

وكثيراً ما ترددت بينهما الرسل بالهدايا والالطاف . وأكثر من الهدايا وأنفس ، كانت الزيارات

ولم يكن ادعى للزيارة من انتقال علي بك الكبير ـ شيخ البلد ـ الى داره الجديدة بدرب عبد الحق ، التي تشرف على بركة الازبكية ، هو وحريمه وحشمه وخدمه ومماليكه

أقيمت الولائم للنساء والرجال جملة أيام متتابعة ، ووزعت الصدقات ، وبذل الطعام لأهل الخصاصة وأبناء السبيل. واتفق ان زارت زوجة الجبرتي وضرتها الفتاة ، قصر علي بك في اليوم الذي نفي في أمسه عبد الرحمن بك كتخدا الى الحجاز . وبعد الغداء خرجت الحور العين الى البستان وتوزعن أسرابا

قالت نفيسة هانم : « نحن معشر الجواري نتخذ للمتعة والزينة . نختال في برود الوشي والديباج ونأكل من طعام الجنة . لا ننفك نتجمل أو نغتسل كعرائس البحر في حمامات من الرخام والمرمر وننضح العطر على أجسامنا . نهارنا للزينة وفي الليل نبيح أجسامنا كزوجات وحظايا ، لرجال أترعت قلوبهم طموحاً الى السلطة ، فليس فيها بقية للصبابة . وما ينفع اقتراب الجسوم ، إذا تنافرت القلوب وتناكرت؟

فابتدرتها زوجة الجبرتي تقول : «لقد أحسنت التعبير . والصبايا تتقلب بهن الصبابة في مطارح غير مأمونة . وما ادعى ان نزق الشباب باطل كله ، ولكني أقول انه لا مذموم ولا محمود ! أو هو مذموم اذا اشتط والتوى وتعسف ، محمود إذا زكت فيه أريحية الطبع ورقت بتباريحه الشمائل

فقالت نفيسة هانم ووجهها يتقد من لوعة مكتومة حركها حديث الست زنوبة : « الحب إذن من ضروريات الشباب خيراً كان أو شراً »

فقالت الست زنوبة : « بل الحب من ضروريات الحياة . وحب الشباب يتسامى رويدا رويداً . فيصير مع تطاول الزمن مودة واخاء . وقد تسامى حبي لزوجي فأصبحنا كأخ وأخت ، بعد أن كنا نجيا غرام »

فتحشرجت في صدر نفيسة أنات حرى وقالت بصوت كسير : «عندنا شهوات السمع والبصر ، ونحن بمتع الحياة جد أثرياء ـ غير متاع واحد .. هو الحب »

فنظرت الست زنوبة الى نفيسة ملياً ، وخفق قلبها الذي جفت منه مياه الصبي ، وقالت : « أمحرومة انت من نعمة الحب ؟ ! ألا يحبك علي بك وتحبينه ؟ ! »

فأرخت نفيسة جفنيها وقالت : « هو لا يكرهني ومتمناي ان أحبه . . . نحن لا نحب لاننا نريد ان نحب . الحب لا ياتي قهراً . . . وأماني الحب تعلات ترفه عنا ألم الخيبة ، وتزودنا بغذاء نقتات به في صحراء الحياة »

فأحست الست زنوبة ان عمرها نقص ربع قرن وان الشباب قد أينع بعدأن صوحت السنون غضارته . فانها كانت في كهولتها ، يطيب لفؤادها ان يصطلي نيران الغرام ، فقالت :

— حسبت ان قلب علي بك ما زالت به من ميعة الصبي بقية يحب بها .. وحسبت انك مستودع سره .. وتوهمت انه على الاقل يفضي اليك ببعض ما يكابد في حياته المليئة بالشواغل والمنغصات

فقالت نفيسة وهزت رأسها يأساً وحسرة : « هيهات ! ! انه رجل أسرار عظام ، لكنه لا يبوح بها .. انه عذب الحديث ، ولكنه يحدثني ببعض نفسه ويقبل على بجزء من جوارحه ، وأريد ان يكون لي كله .. هو نبيل وعظيم ، فانا أجله وأكبره ويعجبني منه انه يشعر بأنه بطل الساعة ، وكنت أكون سعيدة لو امتحنت بحبه ونضجت تحت حرارة قلبه ، عسى تنطفىء في قلبي تلك الشعلة المقدسة المشبوبة في كل كاعب . . . »

فقالت زنوبة مواسية : « لقد سمعت كلاما كهذا من زوجات السناجق أجمعين تقريباً ... ولا أخفي عنك ان السناجق يعيشون في شبابهم لأطماعهم ، فاذا أظفرهم البخت المساعد بما اشتهوا من نفوذ وثراء ومكانة ، عاشوا حياة البخيل بين قطاع الطرق . . ان المطامع تذهل القلب عن الهوى ، وتصرفه عن الحب . . والحب أناني ، يكره ان يكون له في سويداء القلوب شريك »

فقالت نفيسة هانم : « السناجق في صراع أبدي وخصومات لا تنقضي ، ونحن في الحريم نرقب وننتظر — ننتظر الزوج الجديد . . فزوجة السنجق اليوم ، تسبى في الغد . ويتزوجها صاحب القسمة .. وقد سبيت مرة ، وباعوني

مرة في الآستانة. ومرة ثانية باعونى في القاهرة . وفى هذه المرة سيشترينى..»

فقاطعتها الست خدوجة قائلة : « ان زوجك علي بك قوي وطيد السلطان يحبه جمهور الشعب ويؤيده العلماء والاعيان . . فمن ذا الذى يجترىء بالعصيان عليه ؟! لقد سمعنا ان رجالا ذوي بأس ، دخلوا عليه فصعقوا من هيبته »

فتنهدت نفيسة ورفعت جفنيها عن حدقتين تحير فيهما الشك ، وقالت : « لقد كان عثمان بك القازدغلي يظن انه باق في مشيخة البلد ما ترددت فيه الروح ، فاقتلع كما تقتلع الشجيرة من الطين اللين »

فقالت الست زنوبة : « الرجال يتفاضلون فيما بينهم . وعلي بك شيخ البلد من الصنف النادر ـ الصنف المختار للحكم ، هو من معدن الملوك . وقد حسب المنجمون طالعه ، فتكهنوا له بالجد الصاعد والغلبة على أعدائه ـ بل قالوا انه سينفرد بحكم مصر »

فرسم الاستنكار على وجه نفيسة علامة استفهام وعلامات تعجب واستغراب وقالت : « كذب المنجمون ولو صدقوا . . على انه ماذا يعنيني أنا من صدقهم. هبيني ساكون ملكة مصر وزوجى حاكما فيها بأمره ، فهل سلطة الامر والنهي ترضي شهوة القلب ؟! هل النعيم والترف والزينة ، كل ما يشتهيه الشباب ؟! »

فضربت الست زنوبة على أوتار الامل ، فقالت : « عندما يخلص لزوجك حكم مصر ، سيتفرغ لك ويقبل عليك ويهبك كل قلبه »

فتهيأت نفيسة للرجوع الى القصر ، ثم قالت : « ان الحب يسقط على القلوب من حيث لا تدري . . لا يأتي الحب نتيجة خطة مرسومة . ولا يقول الانسان سأحب في الوقت الفلانى ، وإنما يحس لاعج الهوى ويصطلى ناره ولايعرف كيف ولماذا أحب . . والناس يسوفون كل شيء ويرجئون كل شيء . إلا مطالب الحب ولباناته . . . »

قالت ذلك وأشارت بيدها نحو باب البستان الموصل الى القصر وقالت :

« هيا بنا الى السجن : سجن الجسم والقلب والروح »

ومشت تتهادى كالطاووس وعن يمينها الست زنوبة وعن يسارها احسان . . . فتراءت ثلاثتهن في صفحة الافق كاخيلة تلوح في وهم شاعر

الفريسة تفر من الصياد

— إيش يكون هذا الدواء ! ؟

— هذا معجون الفلاسفة ، المعروف عند الاطباء بانه مادة الحياة ، صنعه سوماخس صاحب « الترياق الكبير »

— ليس عن هذا سألتك !! هل تظنني امتحنك !؟ أنا واثق من حذقك وغير واثق من ذمتك

قال حسين بك كشكش هذا وصوب الى عبد الله الحكيم نظرة فاحصة ، فاحس عبد الله الحكيم كأن قلبه اخرج ما فيه من اسرار فحاول أن يكتم عن محدثه اضطرابه وقال :

— ومتى كانت ذمتي متهمة . وأنت بالذات عودتني أن ارد عليك العافية وأمنحك الشفاء . لعله قد وشى بي اليك نمام أثيم ! !

فاستمر حسين بك كشكش يفحصه بنظراته وقال :

— دعنا من ذلك ، هل جربت هذا المعجون ؟

— ولماذا أجربه ، إنه مجرب . أوصى باستعماله جالينوس نفسه كما جاء في كتابه « الجوامع » فلا ريب في أنه يجلو صدأ القوى ويزيل اليرقان والقولنج والاستسقاء ويشفي من الفالج واللقوة والنقرس وأوجاع الصدر . بالاختصار انه معجون الفلاسفة . لقد عالجتك به مراراً ، فكتبت لك السلامة من عواقب الافراط في معاقرة الملذات

قال عبد الله الحكيم بلهجة من يريد أن يدافع عن نفسه لا عن فنه . وكان يسرع في الكلام حتى كادت الالفاظ تشبه الصياح

فامهله حسين بك كشكش الى أن افرغ جعبته . وقال في إصرار كثير وعناد أكثر :

— قلت لك انى واثق من واسع علمك . اشهد لك بالمهارة والحذق عن اختبار اذاقني حلاوة العافية واستنقذنى من الموت ورد على الحيـاة . لـكني أرجع فاسألك : « هل جربت هذا المعجون ؟ ! »

فتكلف عبد الله الحـكيم الاستغراب ، وكبح مخاوفه التى بدأت تساوره وتهم أن تجيش فتنضح على ملامحه ، وتنم على سر كبير . وقال :

— لقد جربته أنت قبـل ذلك . حينما شفاك من ضعف الاعصاب واسترخائها . . الا تذكر ذلك ؟

فتجاهل حسين بك كشكش ما سمع ، وقال :

— اذا كنت لم تجربه بعد ، فجربه أمامي . . يجب ان تأ كل من هذا المعجون قطعة . . افعل هذا والا . .

فصاح عبد الله الحـكيم مرتاعاً :

— وإلا ماذا . .

— والا قتلتك قبل أن تقتلني

فارتمى عبد الله الحـكيم على قدميه يقبلهما ، وقال :

— إذا قلت لك الحقيقة هل تعفو عني ؟! عدنى بذلك ، اعترف لك بكل شيء

فدفعه حسين بك كشكش بيديه بعيداً ، وقبض عنه قدميه ، وقال :

— اعرف كل شيء . اعرف ان علي بك الـكبير شيخ البلد هو الذى هددك بالقتل ان لم تدس لى السم في المعجون . وأعرف انه يتربص بي الدوائر وانه قد اتفق مع بعض الامراء والـكشاف على اغتيالى . لـكن كان يجب عليك ان تلتزم الحياد في خصومة كهذه بين اميرين

فقعد عبد الحـكيم القرفصاء ، وقال معتذراً :

— وهل لمثلي ان ينضم الى أمير على أمير . إنكم أيهـا الامراء ، تشركونني أنا وأشباهي من الرعية في خصوماتكم . الا تذكر أنك أمرتني أن أدس السم لعلي بك الغزاوى ، فنفذت مشيئتك . ومات المسكين بيدى لا بسيفك

فانفعل حسين بك كشكش من تلميح عبد الله الحـكيم ، وعز عليه ان يعرض بشجاعته ، وقال :

— وهل مكنني على بك الغزاوي من مبارزته وجها لوجه : لقد ذهبت اليه عندما عاد من الحجاز ، فلما وصلت الى اجرود أنا ورفاقي قيل لنا انه لاذ بالفرار ، وترك الحجاج والمحمل مع انه امير الحج ، وتوجب عليه الشهامة ان لا يتخلى عن الحجاج ويذرهم عرضة لسطو البدو . ذهبت مع رفاقي مخاطراً بحياتي ، اعلم أن حرس المحمل ينصره ، ويقف الى جانبه مماليكه . فلماذا هرب . . . ؟ ! وليته هرب ولم يعد الى القاهرة خلسة . لكنه عاد بعد ان شكانا الى السلطان ، عاد يحمل توصية الى الباشا بانه صار في حماية الاستانة وان من يتعرض له بسوء يهدر دمه !

فاستدرك عبد الله الحكيم قائلا :

— ومن أجل ذلك أمرتني بقتله مسموماً لتقتص منه وتنجو انت من القصاص

فثار البركان ودوى صوت حسين بك قوياً راعداً . لقد جرح الحكيم كبرياءه فانفجر :

— نحن فوق القصاص . ان السلطان يأخذ ثمن سيادته على البلاد يأخذها منا جزية سنوية غير محدودة ، تزيد وتنقص على هوانا ، لنا الامر والنهي وهذا الباشا التركي حاكم وهمي ، يجيء من الاستانة ليقضي ايام السجن في القلعة . يدارينا إن شاء البقاء ونعطيه ما نحب ، ونأمره باصدار الفرمانات فيذعن ونعزله متى اجتمعت كلمتنا وصح عزمنا . والحامية جميع فرقها كانوا اتراكا فتمصروا وانقطعت بهم الاسباب عن وطنهم الاصلي ، فكيف مع هذا يقتص مني السلطان . . لقد نزهت سيفي عن قتل جبان ، فامرتك ان تسمه كما تسم الكلاب . . والآن اذهب ، فانت آمن

فهرول عبد الله الحكيم الى الباب وهو لا يصدق بالنجاة . وصفق حسين بك كشكش ، فخرج من « المقعد » الخافي رهط من البكوات المماليك يتقدمهم « حسن جوجو » كاشف المنصورة . فوجه اليهم الحديث :

— هل سمعتم ما دار بيني وبين عبد الله الحكيم

فقال حسن جوجو :

— سمعنا طرفاً منه على ما اذكر

فالتفت اليه حسين بك كشكش مستنكراً يشك في صدق قوله ، وربت ظهره باستهزاء وقال يستميله :

— انت صديق علي بك شيخ البلد ، وتنتظر السنقجية مكافأة على اخلاصك لمودته . انت طموح ، ونحن على استعداد لارضاء طموحك . وقد اطلعت على تدبيرنا وعرفت ما بيتناه ، فان وافقتنا وانحزت الى جانبنا وقاتلت في صفوفنا ، كان بها ونعم ما تفعل ، وان ابيت قتلناك كراهة ان تفشى السر

فاشرقت الفرحة في وجه حسن جوجو ، وامتلأ قلبه بنشوة الحظ السعيد ، وقال :

— فاز بالسنجقية من لا يقاس بى شجاعة وفهما وتدبيراً ، ويظهر ان الحصول عليها يتوقف على انتهاز الفرص ومرونة الضمير

فاستشعر حسين بك كشكش من تلميحه انه يعرض ضميره للبيع ، فبادر الى شراء هذا الضمير قائلا :

— ها هي الفرصة قد لاحت فانتهزها ؟

جوجو — انتهاز الفرص سنة السناجق

كشكش بك — ستكون سنجقاً عما قريب

جوجو — لا أظن ذلك . . . الامر موكول الى الظروف

كشكش بك — ما بالك متردداً ، ان الظروف يهيئها الانسان ويخلقها ، وقد هيأنا لك الظروف

جوجو — لست متردداً ، أريد ان اسير فوق ارض صلبة لا على الرمال الخائنة ، واريد ان ألتمس لنفسى عذراً

كشكش بك — عندك الف عذر ، من الذى ساعد علي بك حتى صار شيخ البلد

جوجو — عبد الرحمن كتخدا ، ساعده بنفوذه ونصره بواسع حيلته ، وشدر أزره بجنود الانكشارية الذين كل ضباطهم من صنائعه وعبيد نعمته

كشكش بك — فماذا كافأه ؟!

جوجو ـ كافأه بنفيه الى الحجاز ، ووضع صالح بك الجلفى حارساً عليه فصحبه الى السويس

كشكش بك ـ وصالح بك ، ماذا كان مصيره بعد حراسة عبد الرحمن بك الى السويس ؟ !

جوجو ـ أمر علي بك بنفيه إلى غزة . . لكن اسمح لى أن . . .

فقاطعه كشكش بك قائلا :

ـــ ستقول اني أنا الذي أغريت على بك وزينت له نفى صالح بك الجلفى شفاء لحقدى عليه . فليكن . لكن الذي يهون عليه نفي صديقه ونصيره ، يهون عليه نفى سواه

جوجو ـ تقول الاشاعة غير ذلك

كشكش بك ـ تقول الاشاعة إننا اكرهنا شيخ البلد على نفى صالح ، حتى يفقد صالح عضدا أميناً ، دهاء منا وبعد نظر

فقال جوجو :

ـــ تقول الاشاعة هـــذا ، وتقول أيضاً إنكم كنتم انضويتم تحت لواء عبد الرحمن بك كتخدا قبيل نفيه ، وألفتم حزباً قوياً غنياً ، وضع في رأس برنامجه نفى علي بك أو قتله

كشكش بك ـ كأنك قد صدقت الاشاعة ! ! كأنك تتهمنا بنفى صالح بك انتقاماً لنفى عبد الرحمن كتخدا ...

جوجو ـ إذا كانت الاشاعة كاذبة ، فمالى أراك توليت قيادة التجريدة المرسلة لقتال صالح بك . فلما كنت أمامه والتقى الجيشان انهزمت من غير قتال جدى . . . فعادت التجريدة إلى القاهرة من حيث أتت ، وهناك صرحت أنك تعتزم الذهاب إلى منصبك الجديد حاكماً على جرجا . . . وهنا تزيد الاشاعة أن صالح بك فاوضك سرا عن طريق مملوكك حسن بك أبى شبكة الذي كان علي بك قد نفاه الى الصعيد لاتصاله الوثيق بعبـد الرحمن كتخدا ، فاتفقتما على ذهابك إلى جرجا ، لتخلي الطريق أمام صالح بك . ويزيدون على ذلك

أنك أرسلت إلى زميلك خليل بك وبقية حزبكما أن يخذلوا على بك ، عندما يهاجم صالح بك القاهرة

كشكش بك ـ ليس الامر على ما وصفت ، الامر على العكس تماماً ، فالحقيقة هي أن علي بك أرسلني لقتال صالح بك ليضرب بي خصمه . ففهمت قصده ، وفضلت الحياد والذهاب الى منصبي الجديد . . . فأمر بنفي . . .

جوجو ـ ولماذا لم تذهب إلى المنفى الذي عينه لك علي بك ، وتمكث هناك الى أن يأتي الله بالفرج ؟ . . إنك خاطرت بحياتك حينما عدت ليلا إلى القاهرة وطرقت أبوابها التى عند قنطرة السباع ، ودخلت عنوة ولم تخش القبض عليك . . . وأظن أنك حتى هذه اللحظة تحت رحمة علي بك يقبض عليك في أي وقت شاء

كشكش بك ـ أنت متردد يصعب اقناعك بالجدل . . قم معي أنا وأصحابى وأفراد حزبي ، لتعلم من هو الذى في قبضة صاحبه . . أنا أم علي بك

وما هي إلا برهة حتى كانت كوكبة من الفرسان تشق الطرقات متوجهة نحو بركة الفيل . فلما بلغت قصر علي بك شيخ البلد ، احتاطت به . . واطلقت النيران على القصر ، فأرسل شيخ البلد رسولا إلى حسين بك كشكش يسأله عن السبب ، ويعرض عليه الترضية اللازمة . . . فقال حسين بك كشكش للرسول :

ـ قل لسيدك إن الترضية الوحيدة التي تثلج صدرى وتفض الاشكال بسلام ، هي أن يغادر القاهرة منفياً الى « النوسات » ومنها الى غزة

فعاد الرسول بعد برهة يقول : إن سيدى شيخ البلد يأخذ الأهبة للرحيل إلى منفاه

فنظر حسين بك كشكش الى حسن جوجو وقال :

ـ أرأيت أن صاحبك هو الذي تحت رحمتى ؟ . .

عاد من منفاه ؟ !

كيف هذا . ؟ ! ان شيخ البلد خليل بك ، وشريكه في الاحكام حسين بك كشكش ، تشككا أول الأمر في صحة الخبر . وطبيعي أن يرتابا في خبر كهذا يندر أن يقع في مثل هذه الظروف

جاء رسول من دار حسين بك كشكش ، وطلب مقابلة سيده في الحال فابى الحاجب فالح الرسول واشتد بينهما الحوار :

الحاجب ـ سيدي حسين بك في الجمعية . فأنت تعرف أنه قد صدر فرمان من الباشا بتجهيز تجريدة لمحاربة صالح بك القاسمى

الرسول ـ أعرف هذا ، وأعرف أن صالح بك قد تقوى بمن انضم اليه من خصوم سيدى ، ورجع من شرق أولاد يحي الى المنيا ، واستقر فيها وحصنها . وأعرف أنه لا بد زاحف بجيشه على القاهرة عندما يستكمل أهبته . الا انى رغم ذلك كله أطلب مقابلة سيدى حسين بك في الحال

الحاجب ـ لا أستطيع الدخول على السناجق الآن ، لأنهم آمروني بأن لاأدخل عليهم أو أسمح بدخول أي انسان أثناء اجتماعهم . انهم كما تعلم يتكلمون عن التجريدة ، ويرسمون خطة القتال . وهذا سر لا يحسن أن يقف عليه أى انسان

الرسول ـ دعني اذن أدخل ، وأنا وحدي أتحمل المسئولية ، وعلي تقع العاقبة إذا كانت وخيمة

الحاجب ـ ولكني مسئول قبل أن تكون أنت مسئولا . وإذا كانت العاقبة وخيمة عليك ، فهى كذلك علي وخيمة

الرسول ـ إن الذي استقدمني إلى هنا حادث لا يقل خطراً عن التجريدة

الحاجب ـ وهل تظن أو يدور بخلد عاقل ، أن هناك شيئاً يساوى في أهميته تجريد جيش يتولى الدفاع عن القـاهرة ضد جيش يزحف عليها من الصعيد

الرسول ـ نعم . أتدرى لماذا قلت لك نعم . ؟

الحاجب ـ وهل ترانى أصبحت من المنجمين ؟

الرسول ـ انك تعلم أن شيخ البلد هو وسيدى حسين بك ، قد أمرا علي بك الكبير بالسفر منفياً إلى بلاد الشام ، فأذعن علي بك وغادر القاهرة ومعه مماليكه واتباعه

الحاجب ـ إن ذاكرتي ليست ضعيفة إلى هذا الحد . فقد حدث ذلك منذ اسابيع . وذكر ان علي بك الكبير اقام « بالعادلية » ثلاثة ايام حتى عملوا حسابه وحساب اتباعه . ودفعوا ما عليهم من مال وغلال للخزانة . وقيل ان الجنود احاطت به وباتباعه ومماليكه وصوبوا نحوهم المدافع . ولولا ذلك لهرب علي بك دون أن يؤدى ما عليه

الرسول ـ وتذكر ان علي بك استصحب معه ثلاثة من نخبة سناجقه : محمد بك ابا الذهب ، وايوب بك ، ورشوان بك

الحاجب ـ وماذا بعد ذلك ؟! ما علاقة هذا بالحاحك في ضرورة دخولك على السناجق وهم منشغلون بالتجريدة ؟ ! بل أين هـذا من زعمك ان ما جئت به من الأنباء لا يقل أهمية عن التجريدة ؟

الرسول ـ اعلم ان علي بك الكبير موجود الآن في القاهرة ، هو وكافة مماليكه وأتباعه . . . ولن أزيدك من تفاصيل الخبر شيئاً فوق ذلك . فهل تسمح لي بالدخول ، والأمر على ما حدثتك ؟ !

الحاجب ـ ادخل ، ادخل

فدخل الرسول . فأحـدث دخوله ، بادىء ذى بدء ، استياء واشفاقا ودهشا وحب استطلاع . فلما تبين كشكش بك أن الرسول من مماليكه ، سكن روعه وعلم أنه انما جاء في أمر لا يصح الابطاء عن ايقافه على جليته . وهذا هو السبب الذي جعل المجتمعين من السناجق ، يكظمون غيظهم ويتجاوزون عن

اقتحام الرسول عليهم حيث اجتمعوا للمداولة ، وتقرير مصير التجريدة ، فهتف به حسين بك كشكش قائلا : « إذا لم تكن قد جئت في أمر مهم جداً لا يحمل الابطاء عن ابلاغه اياي ضربت عنقك »

الرسول ـ بل جئت فيأمر يستأهل أكثر من التعجيل بابلاغه إياك ، وأستحق عليه جائزة سنية ، يامولاى

حسين بك كشكش ـ عجل إذن ، بما عندك من نبأ ، وحذار ألا يكون من الاهمية بمكان عظيم

الرسول ـ وهل هناك خبر أهم من وجود على بك بالقاهرة هو ومماليكه واتباعه . وعجيب أن يغادر منفاه في غزة ويصل القاهرة على غرة

فكانما قذف الرسول وسط الجمع قنبلة أو أثار بركانا ، حينما أذاع هذا النبأ الجسيم . وضج الجميع ، واصطرع في وجوههم الشك واليقين ، ومدوا أعناقهم نحو الرسول ، كمن يستزيده شرحاً وتبياناً . وبادره حسين بك كشكش بقوله : «وأين ترى يكون على بك ، في أي مكان نجده ؟ أين اختبأ هو ورجاله »

الرسول ـ انه اختبأ فى دارك أنت يا مولاي

فارتبك حسين بك ، ثم أدركته أريحية مركوزة في طبعه . فانه كان رجلا سليم القلب ، لا يحمل لاحد حقداً . إذا غضب انتقم لنفسه في الحال ، وإذا انتقم نسي كل شيء ، وعاد قلبه ناصعاً كالورقة البيضاء . ولم يكن بين السناجق من يشبهه في شخصيته . وما أبعد شخصيته عن التعقيد : كان مزيجا من الشجاعة والخلاعة ، يحمل بين جنبيه قلباً جريئاً ، وفؤاداً طروباً ماجناً . وقد قضى حياته اما محاربا لا يهاب الموت ، واما هازلا عابثاً بين الكأس والطاس والندمان . يضحك للنكتة البارعة ، ويشجى للاغنية الجميلة . وقد بلغ به حبه المزاح أنه كان يوسع خدمه تنكيتا وتهكما اذا لم يجد أحداً من ندمانه حاضراً

فهل عجيب أن يقول مثل هذا الرجل ، معقباً على كلام الرسول : « ان على بك الكبير أخي ، وقد صار بنزوله في دارى جديراً بحمايتى . إن من يعتدي عليه ، كمن يعتدي على شخصى ! »

فعجب السناجق من غفلته ، ونقاء سريرته التي تجعله في عداد الاطفال

وقال أحدهم ـ الرأى عندي أن تقتلوه ، وترتاحوا منه فانه ان دام حيا أتعبكم . ولا يبقي منكم أحداً

فانشطر الجمع نصفين ، نصف يؤيد حسين بك ونصف يرى قتل على بك واشتد الجدال . فتدارك خليل بك شيخ البلد الخطب قبل استفحاله . وتدخل في المناقشة التي أوشكت أن تؤدى إلى خصومة . وقال : « أرى أن نعجل بنفيه اليوم . بل يجب أن يغادر القاهرة في التو والساعة بلا ابطاء . فاذا انصاع كان بها ، واذا أبي قتلناه »

فقال حسين بك كشكش : « هذا جميل . لكن علينا أن ننفيه الى بلدة في الوجه البحري . لانه اذا سافر الى الصعيد ، فلا يعز عليه الانضمام الى صالح بك ضدنا »

فقال خليل بك : « ما رأيكم في نفيه الى « النوسات »

فصاح الجميع بصوت واحد قائلين : « الى النوسات من الآن »

فقال خليل بك ـ وأما محمد بك أبو الذهب، وأيوب بك ، ورشوان بك فننفيهم الى أسيوط وبذلك نشتت شمل اتباعه . ونضعف قوته ونأمن عودته في جيش يهددنا كما فعل اليوم على غفلة منا وفي مأزق حرج

فأمنوا على كلامه . وعهدوا إلى واحد منهم في تنفيذ قرارهم هذا . وانفض الجمع على أن يتولى قيادة التجريدة حسن بك جوجو

مأتم في عيد

حتى معالم هذا القصر ورسومه ، قد عفى عليها الزمن ، وسحب عليها البلى أذياله . القصر الذى ابتناه الناصر قلاوون في ميدان « قره ميدان » ، تخرب وجفت حديقته وامحت آثاره ، لا بفعل الطبيعة ، ولا بتدمير طاغية نهمه إلى الهدم أشد من نهمه إلى البناء ، وانما كان خرابه نتيجة حادث أشبه بالخرافة ، حادث واقعى روعت له القاهرة . . . وشرح ذلك انه كان قد بقى من هذا القصر « كشك » ، يقام فيه احتفال في عيد الأضحى من كل عام

في اليوم الاول من العيد ، يركب السناجق بعد الفجر ، وينطلقون إلى القلعة وخلفهم أرباب العكاكيز ، وهنالك يمشون أمام الباشا من باب السراي إلى جامع الناصر بن قلاوون حيث يؤدون صلاة العيد ، ويرجعون كما ذهبوا إلى السراي . ثم يقبلون «أتكه» واحداً فواحداً ، ويهنئونه بالعيد السعيد . ثم ينزلون إلى بيوتهم ، فيهنيء بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم

وفي اليوم الثاني يهبط الباشا وحرسه ميمماً صوب « الكشك » . فاذا البسط ذات الوبر الحريرى قد فرشت ، واذا المقاعد الوثيرة قد نسقت ، واذا الفراشون قد هيأوا « التطلى » وأعدوا « الشربات » والقهوة ، واذا المجامر يفوح منها عبير البخور ، واذا القماقم يترقرق منها ماء الورد ، واذا الخدم والسعاة والجاويشية وصغار الضباط قد اصطفوا صفين ـ فيشق الباشا طريقه الى قاعة الاستقبال الكبرى

وفي اليوم الثانى من عيد الاضحى لسنة ١١٧١هـ ، جلس الباشا بذلك الكشك . وبكر ارباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد . ثم أقبل الدفتر دار وأمير الحج والامراء السناجق والاختيارية ، وكتخدا الانكشارية وكتخدا العزب والآوده باشيه والتمقات والجوربجية

وهنأوا الباشا على قدر مراتبهم ، ثم خرجوا إلى دهليز القصر على نية النزول من السلم إلى الحديقة

مباغتة دامية ! !

انقض أربعة من الرجال ملثمين على الامراء السناجق ، وأوسعوهم بالسيوف تجريحاً ، وأطلقوا عليهم نيران البنادق . فدافع الامراء عن أنفسهم ، وشد أزرهم مماليكهم . واختلط الحابل بالنابل ، وهرب ناس وثبت آخرون . وطفق الامراء السناجق يفتكون بعضهم البعض ... الدهليز مظلم ، وهم قد ساء ظنهم بأنفسهم ، وتخون الحميم منهم حميمه . وأصدقاء المصلحة بعضهم لبعض عدو

فأصيب عثمان بك الجرجاوى بجرح فى وجهه ، ونفذت رصاصة من خصر حسين بك كشكش . ولما غم الموقف ، واستبهمت الحالة ، قفز أكثرهم من فوق حائط البستان ، وركبوا خيولهم ولاذوا بالفرار

وانجلت المعركة ، وتبين بقية من الأمراء في الدهليز ، انهم أصفياء وانهم صدوا عن أنفسهم غارة أعداء دهموهم على حين غفلة وفروا هاربين . فوضعوا سيوفهم في الاغماد ، وأقبلوا على عثمان بك الجرجاوى وهو يئن : « باب العزب . باب العزب . . » يريد أن يحملوه إلى باب القلعة الذي تحتله فرقة العزب ، وهم المشاة من الحامية التركية الموكلون بصيانة الامن وقمع الفتن واخماد الثورات بمصر . . فوجدوا أن السيف قد شطر صدغه وشق فمه ، فضمدوا جراحه ، وأركبوه حصانه ، وساندوه حتى باب العزب . وهناك انزلوه جثة هامدة . وحول جثته اجتمع الامراء السناجق ، يتعجبون من هذه المباغتة في صمت وسكون

فقطع عليهم سكونهم هاتف منهم يقول : « ان هذا من تدبير الباشا »

فقال رفاقه : « أصبت » ، إلا واحداً هو خليل بك الدفتردار . فهذا الرجل المحنك الداهية سكت وأدار وجهه يتلمس حسن بك جوجو ، فرمقه خلف الجمع بهيئة مريبة ، الا انه كان رابط الجأش قد نجح في كبح ثورة نفسه ، فلم يبق من أثرها في محياه الا اصفرار باهت

بيد انه لم ينجح إلا بمقدار لا يخفى على الفطن الأريب

فألقى خليل بك عليه نظرة مستفسرة . ردعليها حسن بك جوجو باطراقة

الى الارض ، كانه استرسل في تخيلات وظنون ومخاوف

عرف خليل بك أن هذه المباغتة من تدبير حسن بك جوجو بالاتفاق مع علي بك الـكبير . فلقد أبلغه جواسيسه أن مراسلات تبودلت بينهما

علي بك في النوسات حيث نفاه السناجق ، وحسن جوجو في القاهرة ... وحسن جوجو معروف بنفاقه . وانه يحذق هذا النفاق بحيث يخدع به حق من يوقن انه يدس له ويعمل على الايقاع به . كان حسن بك جوجو لغزا ، لا يستطيع أى إنسان ان يعرف أصديق هو أم عدو . والواقع أن حسن بك نفسه ، كان لايفهم نفسه ـ كان يخلص للاصدقاء اخلاصه للاعداء . لافرق عنده بين عدو وصديق . في لحظة ينقلب إحساسه الى الضد نحو الاصدقاء ، وفي لحظة يصير العدو صديقاً . ولا يعييه أن يجد المعاذير لنبذه الصداقة ، ولا يصعب عليه أن يصافي ذلك العدو الذى يأتيه من ناحية ضعفه أو يغريه ببذل ماله بين يديه ومعاونته على درك مأموله . والحق أن حسن بك جوجوكان يمثل عصره ، ويجمع في شخصه شتي أخلاق الضعف التى راجت في ذلك العهد

كان ماظنه خليل بك حقيقة لامراء فيها . لـكن كيف يمكن اتهام حسن جوجو . وما جدوى اتهامه ؟ إنه إذا كان اليوم صديقا لعلى بك وآلة في يده ، ووسيلة فعالة في تنفيذ مؤامراته ، فمن اليسير أن ينقلب في لمح البصر عدواً له ويعود فخاً لاصطياده ، ودسيسة ترد كيده في نحره

عرف ذلك خليل بك ، وكتمه عن رفاقه السناجق الى أن يحين الوقت المناسب ـ إلى أن يصطنع حسن بك لنفسه ، ويسخره لاغراضه ، ويتخذ منه وسيلة للانتقـام من ذلك المنفى الذى لا ينقضي خطره حاضراً كان أو غائباً . فبدا له أن لا يصارح رفاقه بكل الحقيقة فقال : « ولأى شيء اجمع الباشا امره على اغتيالنا ؟ ! »

فقال حسين بك كشكش الذي لم تفقده الرصاصة شيئاً من جلده المعهود :

ـ نعم . اننا على وفاق مع الباشا . وقد بادر الى كتابة فرمان بنفى على بك الـكبير إلى « النوسات » منذ أيام

فقال خليل بك : « نفينا علي بك . ولـكن هل أمنا مكره ؟ ! »

فقال حسين بك كشكش : « تريد أن تقول إن أنصار على بك الكبير قد دسوا لنا عند الباشا ودبروا معه اغتيالنا »

فقال خليل بك : « لا يبعد أن شيئاً من ذلك حصل »

ثم دار ببصره باحثاً عن حسن بك جوجو ، فوجده يتأهب للخروج كأن شيئاً يقتضيه النزول من القلعة فلم يشأ أن يلفت اليه الانظار . واستمر يقول : «ومع ذلك فان علينا أن نعزل الباشا . فسواء أكان ذلك من تدبيره هو أم بتدبير على بك وأنصاره ، فانه لم يعد الرجل الذى نطمئن اليه »

فتأهب السناجق للصعود من باب العزب إلى سراي الباشا لكي يعزلوه ، الا حسن بك جوجو ، فانه تريث حتى تقدموه بخطوات ، ولوى عنان فرسه ، وكر هابطا الى داره فى سوق السلاح . ولم يكد يمر بباب جامع السلطان حسن حتى خرج منه رجل عرفه جوجو

قال الرجل الذي كان ملثما ـ هل مات حسين بك كشكش ومات خليل بك ؟

فقال جوجو فيإحدة مكبوتة منعها الاخفاق من الثوران ـ انهما بخير . وكيف كنت تتوقع أن يقتلا . . انكم كنتم أربعة من الرجال ، رغم أنى بالامس اتفقت أن يذهب منكم ثلاثون . ان كشكشا صنديد يرجح وحده بعشرة من الرجال

فقال الرجل الملثم ـ اننا اتفقنا على المجيء ، لاالى القلعة ولكن الى بيت القاضي ورأى أكثرنا أن نغتال السناجق وهم بعيدون عن قاضى القضاة . لأن منطقة بيت القاضى حلزونية الدروب والمنعطفات . وهناك يسهل الفرار والاختفاء

فقال جوجو ـ ولماذا خالفتم الكثرة ولم توافقوهم ؟ !

فقال الرجل الملثم ـ اننا توسمنا فيهم الجبن ، وزيادة على ذلك فانك لم تعطهم الاجر المعهود سلفاً

فقال جوجو ـ ان الأجر في هذه المناسبات يعطى مؤخرا لاسلفاً

فقال الرجل الملثم ـ هؤلاء صعاليك ، ولا يتبلغ الجائع بالوعود ولا تنبعث نفسه للعمل بالأمل

فقال حسن بك جوجو ـ ماعلينا ، لقد فسدت المؤامرة

السم في القهوة

فجأة دخل عليهم الشيخ الاكبر على الرغم من الأوامر التى أصدرها خليل بك للحراس أن يقدموا عنه المعاذير لمن عساه يزوره من الكبراء والاعيان! ومن ذا الذى يجترىء على منع الاستاذ الحفنى من الدخول ، وأبواب الارض والسماء تنفتح له من تلقاء ذاتها . هو قطب الزمان وشيخ الأزهر والزعيم الروحى لمصر ريفها وصعيدها، يندر أن تخلو قرية من خليفة لطريقته في التصوف رجاء الوصول إلى الله بقهر الشهوات وزجر الاهواء . وداره في القاهرة هي كعبة الامة زاخرة أبداً بالضيوف والزوار هذا يلتمس غذاء الروح وذاك ظمآن الى العلم اللدنى ، وذلك طالب قوت ما تعداه ، وامراء المماليك ما برحوا يغشون ساحته ابتغاء النصيحة وتسوية الخصومات وكلهم في طاعته وولائه سواسية . ولكثرة زواره وضيوفه ، بنى الشيخ محمد الحفنى طاحونة وبنى «فرنا» ولم يعلم أحد سر هذا الطعام غير المحدود من أين يأتى والاستاذ الاعظم لا يملك ضيعة ولا ريعاً . ورزقه من أوقاف الازهر على قدر نفقاته وليس فيه متسع لسواه

خلال رضية في شخصيته جذبت القلوب نحوه . فمع العامة يهبط إلى مألوف تفكيرهم يهديهم بالرفق . حتى لقد يساجلهم النكتة ويطرز حديثه بالامثال الطلية والنوادر الشهية والحكايات والخرافات المأنوسة . وهو كيس في سلوكه مع العلماء ، لا يتمادى في جدال مع متعنت مكابر ولا يسخر من دعي قليل البضاعة ولا يدعي العصمة من الخطأ . مهر في علوم الدين واللغة والرياضة والمنطق وأصول الفلسفة وبرع في نظم القريض والازجال . فلما استنفد ما عند الناس مضى يطلب ماعند الله . وصحبه التوفيق فانكشفت له الحجب عن الاسرار ، وصار يرى رسول الله (ص) عيانا لا مناما . فبث تعاليمه في نفر من « مريديه »

فاشتهر أمره ونبه ذكره وامتد نفوذه الروحي الى الشرق العربي ، وارتمى الى الاستانة ، فراسله السلاطين وتقربوا اليه بالهدايا وجزيل العطاء . وكان الباشا التركي حاكم مصر لا يجد غضاضة في النزول من القلعة ـ مقره الرسمي ـ في أبهة موكبه ، ليؤدى واجب التحية للشيخ العظيم

طوبى لمن يسعى اليه الاستاذ الحفني ! ! بشره بالخير والبركات !! وها هو قد جاء إلى دار خليل بك شيخ البلد ، فما أسعد شيخ البلد !

وما نزل عن بغلته حتى أقبل عليه الحراس يتنافسون في تقبيل راحته واستجداء دعواته ، وساروا بين يديه ومن حوله حتى باب القاعة الكبرى ، قاعة الاستقبال فى قصر خليل بك . فتخطى العتبة على مهل . وبعد هنيهة لاح للمجتمعين فيها وهو يقول : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! » فوجموا أول الأمر كاللصوص داهمهم الشرطة في المخبأ الأمين

دهشوا هنيهة ونظر بعضهم الى بعض يستفسرون كيف افتضح سر اجتماعهم الرهيب

بحركة ميكانيكية تقدموا من الاستاذ الحفنى وقبلوا يده ، وعاونه خليل بك من تحت إبطه ، وذهب به الى مقعد في الصدر . ثم أسرع يعتذر عن اجتماعهم السرى :

ــ لقد كنا على اهبة الذهاب إلى دار مولانا لنبلغه ما استقر عليه رأينا فى أمر التجريدة !

فدق الشيخ يداً بيد وقال يائساً متعجباً :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ! أية تجريدة يا خليل بك ؟ ! ألا تنتهى حروبكم ، الاسبيل الى حقن الدماء ؟ هل أنتم على الدوام فى خصام ، يمكر بعضكم ببعض طمعاً في زخرف هذه الحياة ؟! حدثني عن هذه التجريدة

فلم يحر خليل بك جواباً ، وخجل من تقريع الشيخ وتأنيبه . فتولى الرد عنه « حسن بك جوجو » لا لأنه أجرأ من الحاضرين على اللجاج بالباطل وأقلهم تقديراً للعواقب ، ولكن لدالته على شيوخ الازهر بوجه عام والشيخ الحفني على الاخص ، قال :

— قررنا ارسال تجريدة لمحاربة علي بك الكبير هو وحليفه صالح بك .
نعم صار صالح بك حليفا لخصمه القديم الذي نفاه من القاهرة وشرده هو وأتباعه . ولسنا ندري أي شيطان وفق بينهما !

فقاطعه الشيخ الحفني مترفقا في لهجته :

ـ ليس بشيطان من يؤلف بين قلبين فرقت بينهاصروف الايام

فمضى « حسن بك جوجو» في كلامـه كالذي لا يرعوي للموعظة الحسنة :

— شيخ العرب همام هو الذي الف بين صالح بك وعلي بك الكبير وجعل منهما حليفين يهددان القاهرة بالزحف عليها . والاستيلاء على القاهرة معناه هلاكنا جميعاً ، فنحن ندافع عن أنفسنا وعن الرعية

فابتسم الشيخ الحفنى ،وألقى على محدثه نظرة المستنكر العليم بماهنالك.وقال :

— دع أمر الرعية فبلاؤها بكم ومنكم عظيم ، ولن يدافع عنكم مثل السلام يطمئن في ظلاله الناس على المهجات والاموال ، وبالحسنى والتراضي تحسم الخصومات والمشاكل . وأنا رسول السلام اليكم ، جئت أدعوكم الى إلقاء السلاح . . . فكفوا عن ارسال « التجريدة »

فضج الجميع وتصايحوا منكرين ما اقترحه الشيخ، وأوجسوا خيفةمن مكيدة

الشيخ الحفنى لا يكيد ،إلا أنه سليم الطوية ساذج القلب ، وقد يستعين به خصومهم على الكيد لهم واستخدام نفوذه في عرقلة التجريدة . فقال خليل بك :

— إننا ان لم نذهب اليهم مقاتلين زحفوا علينا مناجزين ، فلا بد من التجريدة . ومولانا أرحم من أن يكون حربا علينا مع خصومنا ، فاذا ظفرنا بتأييدك ، هان علينا العدو لانا خلقنا للحرب

فسكت الشيخ الحفنى ريثما هدأ المكان وساد السكون وقال يطمئنهم :

— أنا الذي بعثت إلى شيخ العرب همام أستحثه على التلطف في سل السخائم من الصدور ، وأمرته أن يعاون محمداً بك أبا الذهب وأيوب بك على عقد الصلح بين علي بك الكبير وصالح بك . لقد كانا صديقين ، فهل بدع أن يعود الوداد سيرته الاولى ؟

فقال الجميع بصوت واحد :

— أحق ما تقول يا مولانا ؟

فقال الشيخ الحفني مؤكدا :

— هو الحق الذي لا ريب فيه ، وقد أرسلت إلى علي بك في اجراء الصلح بينكم ، فكان جوابه أنه يتمنى من صميم قلبه حقن الدماء وصفاء القلوب والتعاون على البر والتقوى

انشطر الرأى بين المجتمعين ، ففريق استبشر بكلام الشيخ ، وفريق شك في نية علي بك ، وكان من الفريق الاخير خليل بك شيخ البلد وحسين بك كشكش وحسن بك جوجو ، فكل منهم بصير بدهاء على بك الكبير . . .
وتلافياً لتحرج الموقف وتجنباً لغضب الشيخ وحرمان تأييده قال خليل بك وكان أكيسهم وأعرفهم بتصريف الكلام

— هذا حسن ! ونود أن يكون صحيحاً . لكن بلغنا أن علي بك الكبير وصالح بك تعاقدا على محاربتنا ، وأنهما يتظاهران بالميل الى حقن الدماء وتسوية ما نشب بيننا من نزاع ، ليفتوا في عضدنا فنتهاون في الاستعداد لقتالهم . وقد ضبطنا خطابات ارسلها علي بك داخل « شبكات » بعث بها هدية لبعض العلماء يعدهم فيها خيراً إذا « نجح الملعوب » وعاد الى سابق منصبه شيخاً للبلد

فلم ينفعل الشيخ الحفني ولا بدا عليه أنه تأثر ، وقال بملء الهدوء :

— هات برهانك

فقال خليل واستوحى ابليس :

— في الغد أذهب الى مولانا فى داره ، ومعى الخطابات

وعند ذلك نهض الشيخ الحفني وذهب نحو الباب ، وتبعه الحاضرون : وهم خليل بك الدفتردار وحسن بك أبو شبكة وحسن بك جوجو واسماعيل بك أبو مدفع وحمزة بك وسليمان أغا الوالي وحسين بك كشكش ، وساروا في ركابه مسافة طويلة . وعادوا إلى حيث كانوا فقال خليل بك :

— ان الامر جد ، وهفوة تافهة تودي بحياتنا أجمعين . إن علي بك لا صديق له ولا يعرف لأحد مكانته إذا اعترض مآربه . ولكم في الماضي عظة

وما أراني بحاجة إلى تذكيركم بافاعيله وكلكم قد بلاه . ليس عندى خطابات لكن عندى بينة أكيدة على أن علي بك الكبير يخادعنا ويبث حولنا أشراكه

فقالوا :

— وما هي هذه البينة ؟

فقال خليل بك ، وأومأ إلى حسن بك جوجو :

— هل تريدون بينة أفضل من حسن بك جوجو ، إن علي بك صديق شيوخ الازهر والشيخ حسن الجبرتي يراسله وهو منفى في « النوسات » على نحو ما أثبت حسن بك جوجو . . . تكلم يا حسن بك ، قل كل شيء

فقال حسن بك جوجو مستهتراً بلا اكتراث :

— لا أقول شيئاً ، صدقوا أو لا تصدقوا ، أنتم وشأنكم ، والا فاني تارككم ومنضم إلى علي بك الكبير ، أو اسمحوا أن اعتزل في دارى . أنا مقتنع بان هناك مؤامرة محكمة ، والحصيف يدرك هذا بالبداهة . فماذا تقولون ، أمكذبون أنتم أم مصدقون ؟ !

فقالوا جميعاً :

— هناك مؤامرة !

فزاد على ذلك يقول ملتفتاً إلى خليل بك :

— لقد اقنعنا زملاءنا ، فكيف نقنع الشيخ الحفنى ، ومن أين نجيء له بالخطابات الموعودة ؟ !

فقال خليل بك بلهجة التصميم ، وصوته يكاد يخونه :

— لن يستطيع الشيخ أن يقابلنا غداً

فقال حسن بك جوجو :

— ماذا تقصد ! ؟

فقال خليل بك :

— لقد سقيته القهوة !

الرءوس الستة

كيف يحكم البلاد غير أبنائها ؟! كيف يتولى شئون مصر مماليك يعرضون في اسواق رقيقها ؟ !

أجاب لسان الحال في اوربا عن السؤال الأول ، وعن الثانى أجابت تعاليم الاسلام وأجابت عنه رقدة الشرق العربى بعد نشاط توقد قروناً وبعد انحلال قومياته وبغي عصبياته

فبريطانيا العظمى ، ارتقى عرشها جورج الثالث في سنة ١٧٦٠ ، وهو من اسرة المانية ـ الثالث من اسرة هانوفر الذى استورد المحافظون كبيرها جورج الاول فى مستهل القرن الثامن عشر ، وحكموا باسمه ، ومن الغريب أنه كان يجهل اللغة الانجليزية . . . وأذلت الروسيا أميرة المانية ، تآمرت مع الحرس القيصري بزعامة عشيقها على قتل زوجها بطرس الثالث ، ومجدها التاريخ باسم « كاترين العظمى » . . وخضعت اسبانيا ومستعمراتها لملوك من اسرة « بوربون » الفرنسية ، ورضيت صقلية وسردينيا بحكم امراء من البوربون

هذا والاسلام لا يعترف بأفضلية عربي على أعجمي عملا بمبدأ « إن اكرمكم عند الله اتقاكم » . والامم التي تعتنق هذا الدين ، لا يأنف أهلها من سيادة الذين كانوا بالامس عبيداً أرقاء ، متى توافرت فيهم الكفاية والقدرة على الاضطلاع بشئون الحكم . وبالاخص اذا تميز هؤلاء الارقاء ـ المماليك ـ بعبقرية حربية . وواقع الامر أن المماليك كانوا كلهم يجلبون من قلب آسيا ـ من المغول والتتر . ومن المغول والتتر نبغ افذاذ الفاتحين من امثال جنكيزخان الذي امتد سلطانه من البحر الابيض إلى المحيط الهادي . وأتيلا ساحق اوربا ومذل

الرومان ، وتيمور لنك العاصفة التي طاحت بمئات التيجان ، وبابر مؤسس الدولة المغولية في الهند

وهؤلاء المماليك ومن في حكمهم ، هم الذين صانوا الخلافة العباسية من كيد الفرس ، وهم الذين ردوا غزوات الصليبيين ـ تلك الغزوات التي حفزتها اطماع أرضية بهرجت في صورة أغراض سماوية . . وهؤلاء المماليك هم الذين صانوا تراث العرب وثقافة الاسلام ، ففي ظل سيوفهم أمن الازهر سطوات الدهر ، ومضى يؤدي رسالته ـ وبالاخص في حمى دولتي المماليك البحرية والبرجية . وقبل قيام الدولة الفاطمية وبعد زوالها ، حكم المماليك مصر ـ حكمها الطولونيون والاخشيديون

وما كنت تجد فارقا بين المماليك وأهل البلاد ، إلا من حيث البشرة وعجمة خفيفة في اللسان ، وفيما سوى ذلك ، فقدكانت عادات البلاد وتقاليدها وثقافتها هي عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ، وينسون وطنهم ويخلعون جنسيتهم ، ويتأقلمون

هذا الذي بسطنا القول فيه ، هو معنى ما اختلجت به خواطر المصريين في القرن الثامن عشر ، فهم ما كانوا يعتبرون المماليك ، من أصل خسيس ، ولم يعترفوا قط بانهم سادة ، وإنما كانوا ينظرون اليهم كعنصر ذي مواهب عسكرية وادارية ،وجنس من المسلمين حباه الله صفات ممتازة في بعض نواحي النشاط ، وكان السائد أن العالم الاسلامي جسم تخصصت أجزاؤه لاعمال متباينة توزعت بحكم اللياقة الفطرية

بل هذا هو نفس الموضوع الذي دار حوله الحديث في منزل الحاج صالح الفلاح أحد رجال المال في ذلك العصر

قبل العصر والشمس لا حرارتها محرقة ولا أشعتها فاترة ، أقبل أربعة من التجار وأصحاب الاعمال : السيد الملطيلي كبير تجار البهار ، والخواجا الشرايبي زعيم التجار قاطبة ، والحاج محمد شعبان صاحب المراكب العديدة التي تمخرعباب النيل وصاحب المصانع المشهورة بصنع السواقي وبناء السفن ، والسيد البدري محتكر التجارة مع بلاد المغرب ـ أقبلوا واحداً بعد واحد ، فرحب بمقدمهم

الحاج صالح الفلاح وأدار عليهم كؤوس القهوة ، وراحوا يتحدثون في المشربية المشرفة على شارع النحاسين

قال الحاج صالح الفلاح ، وهو ريفي من أهل قرية تدعى غمرين على مقربة من « منوف » ولوى وجهه نحو المشربية :

— اليوم يتوطد ملك علي بك الكبير . . . أقول ملكه ، ولا أقول مشيخته للبلد ، لأن مثله لا يرضى في ولاية الحكم شريكا

ففطن الشرايبي لما يرمي اليه الفلاح ، وقال معقباً :

— ان علي بك له هيبة صلاح الدين الايوبي ، وحزم الظاهر بيبرس ودهاء أبي جعفر المنصور رأس الدولة العباسية

فزاد المطيلي في الثناء وقال مبالغاً من حيث يعتقد أنه يصف الحقيقة ولا يعدوها :

— هو في نظري أشبه الناس بالمعز لدين الله الفاطمي ، فاني ألفيته يستخدم في مآربه سيف المعز وذهبه

فاستدرك الفلاح قائلا :

— أما سيف المعز ، فنعم . . . وأما ذهبه ، فلا . . . انه يسرف في قتل خصومه ، ويستصفي المال من مكتنزيه ويدخره . . . وآخر من صرعه بسيفه : خليل بك الدفتردار وحسين بك كشكش وأربعة من كبار أنصارهم . . وبعد قليل سيمر من أمامنا موكب تتقدمه ست صواني في كل صينية رأس من الرءوس التي فصلت عن ابدانها بسيفه

فتعجب التجار مما قاله الفلاح وشاء الحاج محمد شعبان ان يستوثق مما سمع :

— أحقاً قتل خليل بك وكشكش ؟

فاشار الحاج صالح الفلاح الى الشارع وقال :

— ألست ترى الجماهير قد شرعت تتوافد وتحتشد على جانبي الطريق . لقد كنت في الصباح عند علي بك الكبير ، فأمر الوالي (المحافظ) أن يرسل المنادين في الاحياء ، ليستنهضوا الجمهور إلى الفرجة على رءوس الخونة الستة

— تقصد خليل بك وكشكش والاربعة الباقين

فامتدت الاعناق إلى الشارع ، فاذا الناس ينسلون من كل حدب . فقال السيد البدري :

— خيراً فعل علي بك الكبير . أتذكرون يوم جمعنا كشكش بك في داره ، واستعجلنا جمع ضريبة استثنائية من التجار كافة ، ليجهز التجريدة الاخيرة التي انهزمت ، والتي راح العلامة الحفني رحمة الله عليه ضحية الاعتراض على توجيهها ضد علي بك الكبير وصالح بك . . فلما اعتذرنا بضيق الوقت ، سبنا وانتهرنا وهددنا بالمصادرة السريعة والنفي إلى غزة

فقال الحاج صالح الفلاح والأسف يبدو في وجهه :

— أي نعم ، وقد خذله الله . . . ففر إلى « غزة » هو وخليل بك وتجريدتهما ، تاركين القاهرة . . . لعنة الله عليه ، لقد اقترض مني عشرات الآلاف من الدنانير هو وشريكه خليل بك ... لكن مالي لن يضيع ، فعندى صكوك عليهما . وقد وعدني علي بك الكبير ، صبح اليوم بدفع ديونهما من ريع سنجقياتهما ونحن تركتهما

فاستبشر الجميع خيراً بمقالته ومضى الملطيلي يقول :

— نعم الحاكم علي بك الكبير ، انه جعلنا نتذوق العدل — ونتذوقه شهياً معسولا . . والعدل أساس الملك

فتذكر البدري حكاية تناسب المقام ، قصها فقال :

— في علي بك هذا نفحة — أو نفحات من عدل العمرين ، عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . وآية ذلك أن مصطفى كاشف ، وهو شرس جهول ظلوم لا يطاق ، قبض على الشيخ العريشي بسبب فتوى شرعية أغضبته وأهان العريشي ويقال انه ضربه ، ثم سجنه في داره . . . فعلم الشيخ على العدوى بالخبر . . . فركب حماره وتوجه إلى دار مصطفى كاشف بدرب الشمسي . . . ودخل من الباب وأمعن حتى توسط الفناء ، وصاح بمماليك مصطفى كاشف قائلا : « أين سيدكم ؟ ! » . . . وقبل أن يجيبوا خرج سيدهم من السلاملك ، فما إن وقع عليه نظر الشيخ العدوي ، حتى ذهب يسبه أفحش السباب وأقذعه . . . فما قال له : « يا كلب . . . لعنك الله ، ولعن اليسرجى

الذي باعك ، ولعن من اشتراك . . . ولعن من جعلك حراً . . . لأنت والله أخس من العبيد وأرذل من الاماء واسفل » . . . فارتج على مصطفى كاشف ، فصاح الشيخ العدوي على مماليكه طالباً منهم أن يجيئوه بالشيخ العريشى . . . فصدعوا بالامر . . . وخرج العدوى متأبطاً ذراع العريشى

قال هذا وسكت يستجمع ذاكرته . فتساءل الفلاح قائلا :

— نبئنا ما علاقة علي بك الكبير بهذه الحادثة ، وكيف أتيح له ان يطبق العدل عليها

فقال البدري مستأنفاً قصته كأنه لم يسمع استفسار الفلاح :

— فركب مصطفى كاشف جواده ، وذهب إلى دار علي بك الكبير ، وشكا له الشيخ العدوى وطلب الاذن له بغسل اهانته ولو بالدماء . . . فانتهره علي بك ، وهدده بالقتل ان هو حرك ساكناً . . . فانصرف من حضرته صاغراً ... أليس هذا من نفحات العدل العمري

فقال الجميع : « نعم ! هو كذلك »

وتعذر الحديث ثم استحال . . ذلك ان الجماهير المحتشدة ازدحمت على جانبى شارع النحاسين ، وبدت واجهات المنازل والربوع كأنها موشاة بالوجوه منمقة بالعيون ، واختفت السطوح تحت طبقة من الاجساد البشرية الحية . . . وتعالى الضجيج ، وارتفع صياح الغوغاء . . . وتفاقم اللجب وغزا الدور دوي كالهدير . . . فاضطر الفلاح وضيوفه التجار الى الفرجة ، تاركين الحديث الى فرصة اخرى

وفيما هم يتفرجون ارهفت آذانهم واشرأبت الاعناق إلى ناحية باب النصر وخفت اللجب فعاد همساً . . . ثم عاد الهمس سكوتاً . . . وعاد السكوت وجوماً . . . وجاء الموكب وفي مقدمته رءوس ستة . . على ست صوان من الفضة

رأس خليل بك الدفتردار

ورأس حسين بك كشكش

ورأس حسن بك أبي شبكة

ورأس اسماعيل بك أبى مدفع

ورأس حسن كاشف

ورأس حمزة بك

ومن وراء الرءوس محمد بك ابو الذهب قائد التجريدة التى صرعتهم اجمعين ، والى جانبه صالح بك القاسمي شريكه فى القيادة

فقال الحاج صالح الفلاح :

— ان محمداً بك أبا الذهب صورة مصغرة من علي بك الكبير ، كأنهما شخصية واحدة ، تفرقت في جسمين

فارتاح ضيوفه لوصفه ابا الذهب ، وقال الشرايبي :

— ان مصر ستدين لعلي بك الكبير بفضل هذا الجندي الباسل — ابي الذهب . على بك هو الرأس المفكر . . . وابو الذهب هو القوة المنفذة القاهرة

فقال الحاج صالح الفلاح وقد هم ضيوفه بالانصراف :

— لقد تغدى الباشا اليوم على مائدة على بك وهو حادث قلما يقع . وأغرب من هذا أن مولانا السلطان مصطفى الثالث بعث الى علي بك بسيف وفروة سمور وخطاب خاص

فقال الشرايبي مبتسما : إن السلطان يشتري وده بالهدايا في هذا الوقت الذى نعانى فيه أسوأ الخصومات والنذالات

وسلموا على صاحب الدار وانصرفوا

غدر ووفاء

سار موكبهم على مهل في ضوء القمر ذات ليلة من ليالى الصيف : وكانوا خمسة فرسان ، تقدم أكبرهم سناً وتأخر البقية قليلا . تكاد تضيء وجوههم البيضاء وتشرق لحاهم المرسلة ، على رءوسهم عمائم بهيجة ألوانها ، وتمنطقوا باحزمة من الحرير عريضة غرزت بينها وبين السراويلات خناجر ، تعكس أياديها المرصعة بالاحجار الكريمة أضواء حمراء وخضراء وارجوانية .. وتدلى بجانب كل غطريف منهم حسام قصير معوج في غمد من الفضة أو من الذهب

تحسبهم خرجوا للقاء عدو ، دبروا أن يباغتوه في سكون الليل وصمت الوحشة. غير أن أناتهم وعدم اكتراثهم يغفى عنك هذا الوهم. والحق انهم سمروا هزيعاً من الليل عند كبير المماليك في قصره المشرف على بركة الفيل . وقضوا من السمر فوق مأربهم . ثم انطلقوا ، كل واحد منهم قد احتواه فيض من المسرات فانطوى على نفسه وانشغل بها عن الآخر ، ولولا أن جيادهم تعرف الطريق لضلوا سواء السبيل . . الى أن وقفت جيادهم عند منعطف الطريق حيث تتشعب المسالك . فالتفت صالح بك يخاطب محمداً بك أبا الذهب ، قال :

— لعلك مهموم ! ! لقد وجدتك هذه الليلة على غير عادتك ساهما شارد الفكر كانك من نفسك سليب ! ! هل تعلق بالك بغاية عسير دركها ، أم هناك ما لا أعلم وأحب أن لا أجهله ، فاني فى مقام والدك ؟ !

قال ذلك ثم نادى على «السائس » وأمره أن يأتيه بالشبك . وأولى محمد بك أذناً صاغية ... فأمسك أبو الذهب عن الكلام هنيهة ولوى وجهه عن محدثه . ثم تظاهر بأنه يكظم غيظه أو أسفه وقال :

— تقول انى والدك ؟! فأيهما أحب اليك ، ولدك أم السائس ؟ !

— ماذا تعنى ؟

— كأنك لا تعرف ! !

— بالله عجل ! ! ماذا حدث ؟ الويل لى اذا كنت أعرف شيئاً ! !

— يجب أن تعرف كل شيء ! ! ! وكان . . . .

واذ ذاك أقبل السائس وقدم « الشبك » لصالح بك ثم اشعله . فاستمهل أبو الذهب قليلا ، ثم استأنف الكلام :

— أقول كان يجب أن توفر على عناء عتابك

— بالله ياولدي خفف عنى ونبئنى ما خطبك ؟ !

فألقى محمد بك نظرة احتقار الى السائس . وعاد فتحدى صالح بك بابتسامة منكرة ، وأومأ الى السائس بازدراء :

— اسأل هذا الوغد ؟ !

فتدارك صالح بك الامر قبل أن يستفحل ، وأراد أن يضع حداً لهـذا الموقف الذى أوشك أن يتحرج ، فقال :

— انه خادمك مثل ما هو خادمي ، فلماذا لم تعاقبه على مابدر منه ؟ !

فتجاهل محمد بك هذه الترضية ومضى في لجاجه ، فأوجس صالح بك أن هناك سراً لا يفهمه

— وهل كنت تغفر لى تأديب سائسك الامين ؟ !

فعجب صالح بك مما سمع ، وقال :

— سبحان الله ، وهل كنت فى شك من ذلك ؟! ها هو أمامك ، افعل به ما تشاء ! !

فأشرقت أسارير محمد بك ، وسطعت من وجهه امارات الانتقام والتصميم والفتك. فاستل حسامه وصاح :

— هيا أيها الرفاق ، هيا اغمدوا سيوفكم في صدره

ثم اهوى بسيفه . . .

ياللخيانة ! ! لقد أغمد سيفه فى صدر صالح بك ، وأقبل رفاقه يجهزون

عليه ـأقبلوا كلهم الا واحداً هو احمد بك بشناق فانه تنحى جانبا من الطريق ولم يساهم في مصرع السنجق المسكين

ولما تأكدوا أنه صار جثة هامدة ، وضعوا السيوف فى أغمادها ، واستأنفوا السير كأنهم لم يقترفوا إثما . وفي هذه المرة لم يخيم عليهم الصمت ، بل شجرت بينهم مناقشة حادة

ليس على أسلاب القتيل شجر الخلاف واضطرمت المناقشة ، فمثوبتهم على مصرعه تحتقر بازائها أسلابه !

أغرب المناقشات حقاً !! وهل ليس غريبا أن يؤاخذ رجل على التعفف عن قتل صديق بريء . لكن سنة العصر هكذا كانت ، أن يتآمر بكوات المماليك ببعضهم بغية السلطة والنفوذ ، وما وراء السلطة والنفوذ من بسطة في الرزق وزخرف العيش الرخى الهانيء ، يستمتعون به حينا ثم يقتلون بالدسيسة غدرا وغيلة بيد أصدقائهم واقرب الناس اليهم

فاى عجب في أن يؤاخذ « احمد بك بشناق » على ابائه وتنحيه عن الاشتراك في مصرع صديقه الحميم صالح بك ؟ ! لقد أحاطوا به وهموا أن يقتلوه لولا أنه كان حذرا يفهم أساليبهم ...

قالوا :

— لماذا لم تخضب سيفك بدم صالح بك ؟ ! أنت بالذات أوصاك مولانا ورئيسنا على بك الكبير ، ان تسبقنا جميعاً الى ازهاق روحه ، فكيف خالفت الاوامر ؟

فاجاب لا مترددا ولا وجلا :

— لقد لوثت سيفي بدمه الطاهر

فقال قائلهم :

— ليس يعنينا أن دمه طاهر أو غير طاهر . . الذى يعنينا أنك لم تصدع بأمر سيدنا وسيدك . . هات برهانك ! ! ان كنت شاركتنا فى قتله ، فاستل سيفك ، لنشاهد أثر الدماء فيه

فانفجر احمد بشناق من الغيظ ، وقال بلهجة الحازم المتأهب للطوارىء :

— ما عودت سيفي أن أستله ليتفرج عليه الناس . . انما عودته أن اخترطه لأفري به الاعناق وأشق القلوب . . فهل . . . .

فقاطعه أحدهم قائلا :

— كفى . . كفى . . إنك غضوب سريع الاهتياج . . أردنا ان نستوثق ليس غير . . وقد صدقناك

قال ذلك قائلهم هرباً من نشوب معركة يخسرون فيها انفس شيء في هذه الدنيا . . . لان احمد بك بشناق كان صعب المراس مغوارا ، لا يشق له في الكر والفر وتقتيل الفرسان غبار.

ولكى يتخلصوا من صحبته في الطريق ، قال محمد بك ابو الذهب :

— غداً نتقابل يا سادة في المجلس عند مولانا وسيدنا على بك الكبير . اياكم والتأخير . إنه اجتماع خطير له ما بعده

قال ذلك ورشق احمد بك بشناق بنظرة فيها تحذير يشوبه الوعيد

فأجابوا كلهم بالايجاب ، الا احمد بك بشناق ، فانه لم يجب بلا او نعم . بل ثنى عنان فرسه ، واختفى واختفوا عن الانظار

* * *

لم يكن احمد بك بشناق مملوكا جلبه النخاس فباعه لاحد البكوات ، بل جاء في حاشية الباشا التركي والى مصر فوجد فيها متسعاً للمغامرات ، فآثر ان يجرب في ربوعها حظه.

صادق البكوات المماليك ، وبخاصة صالح بك . . لانهما كانا ضدين يكملان بعضهما البعض . . . بشناق اكتملت فحولته وتمت شهامته ، وصالح فيه من حياء موفور ورفق جم وعطف رحيم. وصداقة الاضداد مكينة تثبت للمحن وتتأصل على مر الزمن.

ويرجع العهد بهذه الصداقة الى السنة التى سافر فيها احمد بشناق بك الى الحجاز مع صالح بك الذي عين اميراً للحج . فلما عاد ركب الحجاج الى مصر توسط له صالح بك عند « على بك الكبير » فألحقه بخدمته ، وسر بشهامته وما زال يرقيه حتى صار سنجقاً

وكان على بك الكبير يعلم ما بين صالح بك وبين احمد بك بشناق من مودة اكيدة فأحب أن يشركه في قتل صديقه ، لينفي عن نفسه تهمة التآمر عليه فأوصاه ان يكون اول من يثب عليه بسيفه ، فلم يفعل

***

لم يحضر احمد بك بشناق في اليوم التالى الى الديوان ، فأوفدت الرسل تستفسر من داره ... فاخبروا انه لم يغادر حجرته لمرضه . لكنه لم يحضر في الجلسة التالية . فعاد الرسل يسألون عن السبب . فأجيبوا بأنه ما زال مريضا

إنه اذا كان قد ثقل عليه المرض حتى اجبره على المكث يومين في منزله ، أفما كان من المعقول أن يستدعى الطبيب أو على الاقل يرسل الى على بك رسولا يعتذر عن حضوره الى الديوان ؟ ! . فهل هرب ، هل نجا بحياته من غدر على بك الكبير ؟

شبهات قوية اضطر معها على بك الكبير ان يرسل « ابا الذهب » الى دار احمد بك بشناق ليعوده في الظاهر ، ولكي يقبض عليه في واقع الامر

وذهب محمد بك ابو الذهب في اليوم التالي الى دار احمد بك بشناق . فقيل له انه ما انفك عليلا . فطلب مقابلته ، فقيل له : « لقد أمر بأن لايدخل عليه في غرفته انسان ، وهو صارم لا يجرؤ احد على مخالفته »

فأصر ابو الذهب على مقابلته . . . ولم يلبث أن دخل « الحريم » ومضى الى الغرفة فاقتحمها غير مبال بالتقاليد

فتش في سريره ، فما وجده !

وبحث عنه تحت السرير وخلف الستائر ، فما وجده !

وهم ان يبحث عنه في غرف الدار وحديقتـه ، لكن فطنته رجحت ان بشناق قد هرب

فاستصوب ابو الذهب ان لا يضيع لحظة في استجواب زوج احمد بشناق ومماليكه ، فخرج من فوره وأبلغ على بك الكبير فرار احمد بك بشناق

إنه إذا كان قد فر ، فمن الميسور تعقبه والقبض عليه . .

فليلحق به الف فارس وجاسوس، يتفرقون في كل مكان ، ويسلكون سائر

الطرق . . . لا بد أن يجيئوا به حياً أو ميتاً

هيهات ! ! من أين لهم أن يلحقوا به ، وكيف يمكن القبض عليه ؟ لقد انسل تحت جنح الدجى في زي رجل مغربي ، وانطلق الى الاسكندرية . فلما بلغها احتمى بالاسطول التركي ، بوصف أنه من رعايا السلطان وليس من المماليك

ومن كان في حماية السلطان فقد أمن على حياته

أصوات مبهمة

هنالك في خيمة قصية ، عند امرأة بدوية ، انعزل سويلم بن حبيب بعيداً عن المعركة . وكأنه عرف الخاتمة من مقدماتها المزعجة ، فأقبل يعزى النفس بذاهب السعادة عن آجل الظفر . والماضى تضاعف الاوهام سعاداته ، اذا حم القضاء

منذ أيام قليلة قدم سويلم من «دجوة» هو ومن يتزعمهم من عرب الحبايبة الذين طغى جبروتهم على الشرقية وانبسط نفوذهم من بولاق إلى رشيد . فلما حط رحاله في البحيرة ، فزع الى نجدته عرب الهنادي ، فصار في جيش لجب . وهناك عسكر في انتظار الصلح أو الحرب . وأنى له ان يطمع في الصلح بعدما وقع منه أولا وأخيراً — فأولا قدم الميرة والذخيرة والخيول والجمال لخليل بك وحسين بك كشكش ، حين بلغاها في اثر التجريدة المولية من هزيمة شنيعة ألحقاها بها عنــد قريتي « الديرس » و « الجراح » على مقربة من سمنود . وأخيراً أوقع بكاشف البحيرة وقتله ونهب متاعه وخيامه . لقد تحدى الجبار ، وأعان أعداءه عليه ، وصرع واحداً من أكفأ رجاله — وقد انتصر على بك الكبير على كشكش وشيعته ، وبقي ان يثأر من أنصارهم عرب الحبايبة وعلى رأسهم سويلم ، وها هي قد حانت ساعة القصاص

اذا لم يكن صلح ، فحرب . وهل يصبر جيش من البدو سلاحه ضعيف ونظامه مختل وقيادته إلى رجل مثل سويلم بن حبيب : إن يكن بطلا شجاعا يحذق حرب العصابات، فانه بتدبير الجيوش ورسم الخطط وتنفيذها غير خبير ؟ !

نعم ان جيش الحبايبة والهنادى قد أصاب قائداً محنكا في شخص احمد بك بشناق الذى أوفدوه من الاستانة ، في صحبة يحي بك السكري وعلي أغا المعمار وعلى بك الملط وغيرهم من السناجق وذوى المناصب ، ممن شردهم علي بك الكبير

الى الشام . فرحلوا من الشام الى الاستانة ليدسوا لهذا الذي أقصاهم عن مناعم مصر وعيشها الرغيد . ولكنك ان جعلت الاسكندر قائدا على جيش فقير في السلاح والدربة ، فثق باندحاره

هم لا شك بعثوا الى مصر لاثارة الفتن وتأليب خصوم علي بك الكبير وما أكثرهم ، فجاءوا في ساعة خالوها صالحة لانجاح مهمتهم . فما كادوا يعلمون أن الحبايبة على جفاء مع شيخ البلد وحاكمها المطاع ، حتى انضموا اليهم بمن معهم من مماليك وأتباع . فألقى اليهم سويلم بن حبيب مقاليد القيادة ، وانتبذ في خيمته البدوية مكانا قصياً

المعركة دائرة الارحاء ، وسويلم بن حبيب غارق في لجة من الذكريات اكتسحت ما يفصل الماضى عن الحاضر . فاستعرض بخياله سالف أمجاده . فرأى كيف استولى على خفارة شاطىء النيل على طول فرع دمياط من القاهرة حتى البحر الابيض . وكيف أنشأ عدة مراكب تسمى «الخراجات» لها شرفات وقلوع عظيمة ، وعليها رجال غلاظ شداد . فاذا مرت بهم سفينة صاعدة أو منحدرة ، صرخوا عليها قائلين : « البر البر ! ! » . فان امتثل رجال تلك السفينة ، أخذوا منهم ما شاءوا من بضائع ومحاصيل . وان تلكأوا في الاذعان، قطعت « الخراجات » عليهم طريق النيل ، ونهبت أضعاف أضعاف ما كانوا يأخذونه لو لم يبطىء بهم التمرد والعصيان

وتمثل سويلم داره العظيمة وغيرها من الدور التى شيدها شاهقة باذخة « بدجوة » تحمل سقوفها أعمدة المرمر المنيفة ، قد رحبت قاعاتها وفرشت بالرخام الملون أرضها . وأنفق على أثاثها قناطير الذهب . وكاد يرى رأي العين أضيافه الذين لم ينقطع وفودهم يوما ولم يقصر هو في اكرامهم .

وانبعث ماضيه رويداً رويداً من مراقد الزمن حيا ماثلا لعيانه . فشهد انصاره بالقاهرة من امراء وعلماء وأعيان ، وكيف كان يبذل لهم الهدايا ويشترى معونتهم في الملمات بالتحف النفيسة والهدايا السنية

بل رأى نفسه راجعاً الى داره على عادته في الثلث الاخير من الليل ، وفي معيته عبيد سود على جياد كريمة ، فدخل الى الحريم وقضى هناك حصة من

الليل . ثم خرج مع الفجر ، فعقد «ديوانا» حضره رجال عشيرته . . وأقبل كتابه ومعهم ارباب الحاجات من مشايخ بلاد وأجناد وملتزمين وعرب وفلاحين . الجميع وقوف بين يديه ، والكتاب يكتبون الاوراق والمراسلات الى النواحي – وما ابعد تلك النواحي ! ! ! ذلك ان بلاد القليوبية والشرقية تكاد تكون كلها داخلة تحت حمايته وحماية اولاده وأقاربه . . .

وطاف بسمعه همس من كلام الناس في ارجاء البلاد ، يباهون بعضهم بعضاً بأنهم يلبسون المراكيب « الحبايبي » و « الشيلان الحبايبي » وجملوا خيولهم « بالسروج الحبايبي » ! ! !

غرق سويلم بن حبيب في هذه الخيالات المرئية لوهمه ، ولم يوقظه منها غير اصوات لم يتبينها أول الأمر وحسبها لما اقتربت وقع خيول استحثها رجاله . فأرهف سمعه وشحذ يقظته ، وسأل نفسه قائلا : « هل يا ترى جاء البشير ينبئني بهزيمة التجريدة التي بعثها علي بك بقيادة محمد بك أبي الذهب ؟ ؟ ؟ أم ترى جاء النذير يحذرني من سوء المغبة اذا تريثت في تلك الخيمة طويلا ، فلم أهرب على جوادي ؟ ؟ »

لا هذا ولا ذاك ! ! لقد هزمت جنوده وفر احمد بك بشناق ولحق به يحيي السكري وعلى أغا المعمار وعلى بك الملط وسائر من انضم اليهم من السناجق المشردين في الشام والمبعوثين من الاستانة ليشدوا أزر سويلم بن حبيب على اعتبار أنه زعيم العرب المناصرين لتركيا والمنضوين تحت لواء السلطان

وما كان محمد بك ابو الذهب ليعرف اين اختفى شيخ الحبايبة ، لولا أن وشى به رجل من اتباعه . فهكذا كان دأب البدو يميلون مع القوي على الضعيف ويبيعون ذممهم وضمائرهم ، وينقضون العهد والميثاق لقاء دريهمات

أحاط الفرسان بالخيمة وترجل غير واحد منهم ، ودخل كبيرهم من الباب وشق الآخرون جوانب الخيمة . فارتاع سويلم بن حبيب ، وطلب النجاة ، فطلبته السيوف من كل مكان . فزاغ عنها يميناً وشمالا فما وجد منفذاً للخلاص ، ولا أجدته توسلاته ، وقل ان تجدي التوسلات عند من جاء يطلب الفخر بقتل العدو المنابذ . . .

وخر سويلم مضرجا بدمائه ، فانهدم بموته نفوذ الحبايبة والهنادي ، وتقلص عن الوجه البحرى سلطان البدو ، وأمن علي بك الكبير على سلطانه من فتنتهم وتلونهم كلما واتت الفرص بلون جديد ...

وانحنى كبير الفرسان على جثة سويلم بن حبيب ، فاحتز رأسه وحمله فوق رمح ، وكر راجعاً الى محمد بك أبي الذهب ، فضمها الى خمسة واربعين رأساً اقسم ليعلقنها في ميدان الرميلة بالقاهرة ... ثلاثة أيام سويا

هدايا بأثمان باهظة

ليت الباشا غاله الموت !! ليت على بك دس له السم في الطعام ، وقال مات من الشيخوخة

الموت في كل الاحايين أهون من السجن — الموت نفسه ، لا توقع الموت ، وإلا فتوقع الموت عذاب مقيم وهم مخامر . عذاب الموت برهة من الألم في أعقابها راحة . وعذاب السجن حرمان وشقاء . واذا كان السجان طاغية مثل على بك الكبير ، أضيف الى الحرمان خوف ذريع من توقع الموت . وقد عانى الباشا حاكم مصر التركي، عذاب السجن من ١٧رجب سنة ١١٨٢ يوم أنزله من القلعة معزولا . وأمر به فسجن في قصر أحمد بك كشك ثم نقله الى قصر عبد الرحمن كتخدا . والغريب أنه اجتواه بعد صداقة اكيدة . فهذا الباشا هو الذى امتنع عن صرف المال من الخزانة العامة لحسين بك كشكش ،فاضطره الى اغتصاب المال من التجار . وهذا الباشا هو الذى خطب في جنود الحامية يحضهم على قتال كشكش ورفاقه ، وحشدهم تحت راية محمد بك أبي الذهب ، وأسرف في النفقة على تجهيزهم ،ونزل الى باب النصر على جواد أشهب وخطب الجند يوصيهم بالصبر والثبات والاستبسال . وهذا الباشا تغدى على مائدة علي بك غداة أقبلت الرءوس الستة محمولة على صوانى الفضة

لا ينشعب الوداد اذا كان محضاً ... المكذوب من الود هو الذى ينشعب — ينشعب حينما تسفر المطامع المبرقعة وتتناحر المصالح المتناكرة

الباشا يخدم الاستانة ، او يخدم نفسه حين يخدم الاستانة . وعلي بك الكبير يخدم نفسه ، ويود أن لا يخدم الاستانة . نفسه أولا ، والاستانة بعد نفسه . فاذا أدى خدمة للسلطان ،فلانه يخافه ويخشاه ، لا لأنه يمحضه الولاء . السلطان سيد البلاد ، ومنه يستمد النفوذ

وقد حدث أن السلطان بعث رسولا وصل القاهرة يوم ١٥ رجب سنة ١١٨٢ هـ ، يحمل خطاباً الى علي بك يتعجله فيه تجهيز تجريدة من نخبة السناجق والمماليك لأن خليفة المسلمين يحارب روسيا . وكفته ما برحت راجحة . ويرجو أن يكتب له النصر على البرنس جالستين قائد جيوش القيصرة كاترين . والفوز مأمول اذا تتابعت الامداد ،واجتمع منها جيش لهام يشد به أزر القائد محمد نشانجى باشا الذي يحاصر حصن « شوكزيم » — وفي شوكزيم قريعه اللدود جالستين

رغبة السلطان الحقيقية واضحة للاريب . وقد وافقت رغبته هوى في نفس علي بك الكبير

أراد السلطان أن يوهن قوة السناجق ويعجز علي بك الكبير ويثبطه عن الثورة عليه ، حين تركيا مشتبكة في حرب طاحنة مع جيوش الروسيا . فاستجداه المعونة . ودفع ثمنها تحيات معسولة وخلعة وسيفاً أهداهما اياه

طرب على بك لرغبة السلطان . وللتو واللحظة شرع في حشد خصومه ومناوئيه من السناجق المتقاعدين والكشاف المتوثبين وضباط الحامية المتمردين. حشدهم من فوره . . . فما طلعت شمس الضحى من يوم ٢٨ شعبان سنة ١١٨٢ هـ ، الا وشرع جيش منهم بقيادة سليمان بك الشابورى ، يغادر القاهرة بخيامه المزركشة ذات القباب ومدافعه وجبخاناته ومؤونته

فكأنّ علي بك نفى أعداءه بالجملة ، وساقهم الى حتفهم من حيث يعلمون ولا يستطيعون عصياناً . لكن هل نفى كل خصومه من البلاد ! ؟

أليس عرب البدو في شمال الدلتا وفي الصعيد الاعلى يحتلون مملكتين داخل مملكة ! ! ثم أليس في البنادر سناجق وكشاف تعللوا عن السفر تحت راية الشابوري وقدموا المعاذير . بل في القاهرة ذاتها رجال يضمرون لعلى بك الكبير أحقاداً دفينة ، ثم هم يتراءون له في ثياب الاوفياء

ماذا يصنع الباشا ؟! ماذا يصنع وقد أفسد على بك سياسة السلطان وتقوى بارسال التجريدة ، حين ساق خصومه الى حرب الروس ، وقعد هو أقوى مما كان ، وما أراد السلطان الا خضد شوكته وتقليم أظفاره وتوهين قواه.

السياسة كالحرب ، سجال . والساسة مثل لاعبي الشطرنج ، لا ييأسون حتى اللحظة الاخيرة . غير أنهم لا يقولون لبعضهم البعض « كش الشاه » وانما يختطفون الشاه قبل كل بيدق ، ان استطاعوا

عمل السياسة في الظلام . والساسة صناعتهم التنكر وتمثيل أدوار البطولة فى تراجيديات يؤلفونها مستكملة كل العناصر الضرورية للمآسي . إلا أهم عنصر — عنصر القضاء والقدر — لا يحسبون حسابه ، فيخطىء لهم كل تقدير و حساب

ومن سوء حظ الباشا أنه عمل في الظلام وعليه رقيب عتيد . . . أحكم المكيدة ونصب الأشراك ، فارتد اليه كيده ووقع في الفخ . . فقد وضع عليه وكيله عبد الله بك عيناً لا تنام وأوصاه ان يرصد روحاته وغدواته ويحصى عليه خفى نشاطه ووجوه سعيه . وألزمه أن ينقل اليه كل كلمة يفوه بها ، ويطلع على كل خطاب يبعث به أو يرسل اليه . والجاسوسية من أسلحة السياسي ، ولعلها أمضاها وافعلها ، لكنها ليست أسفلها وألأمها

وعبد الله بك نعم الجاسوس في عصر بلغت فيه الجاسوسية شأوها الاعلى وتكاثر الجواسيس في البيئات السياسية تكاثر الميكروبات في الجثث العفنة . وهذا الفريق من الانذال الشرفاء والخونة النبلاء يستخذي للاقوياء . تسيطر عليهم الشخصيات القاهرة ، فيخضعون لها خضوع الوسيط للمنوم المغناطيسي

ومن عبد الله بك ، علم على بك الكبير أن الباشا اتفق مع صالح بك القاسمي على الغدر به وأن الاتفاق تم بسعي احمد بك بشناق . وعلم منه أن الباشا بعد مقتل صالح بك ، أوعز الى عرب الحبايبة بالثورة ووعدهم المساعدة على يد يحيي السكري واحمد بك بشناق ، وزعم لهم ان القاهرة ستثور اذا ثاروا . وبعث الى شيخ العرب همام كبير الهوارة في الصعيد يوكد له أن السلطان يرضى عنه اذا ثار ، ويمنيه بالتنازل له عن الـ ٢٥٠ الف أردب من الغلال التى يدفعها جزية سنوية لشيخ البلد لقاء اطلاق يده في الصعيد، الاعلى من فرشوط الى اسوان . وامتدت فخاخ الباشا حتى بلغت الشام والاستانة : فاما في الشام فبعث الى حاكمه عثمان بك بن العظم ، يحثه على تأليب السناجق المنفيين في بلاده ويحضه على مساعدتهم . وأما في الاستانة ، فبعث الى الصدر الاعظم يتهم على

بك بالاسراف في قتل خصومه لتخلص له مصر ، ويهول في استصفائه أموال الاغنياء ، وينسب اليه أنه فرض الضرائب الفادحة علي الاملاك ليجمع من الاموال ما يعينه على حرب تركيا

علم على بك بهذا كله من عبد الله بك وكيل الباشا . فراح يحبط الدسائس واحدة واحدة ، بقدر ما تسمح له ظروف الحال

وذات يوم كان على بك مشغول الخاطر من جهة التجريدة التى طفق يجهزها لاخضاع عرب الهوارة في الصعيد، فامر ان لا يدخل عليه الايوان الا محمد بك ابو الذهب او الشيخ الجبرتى أو عبد الله كتخدا الباشا ، فلم يقف ببابه غير الاخير . فاذن له في الدخول فوقف بين يديه وحياه ، وقال بصوت مستبشر فيه رنين الظفر :

— اليوم ارسل الباشا خطاباً الى الصدر الاعظم ، يتهمك فيه بعقدمعاهدة مع جمهورية البندقية ،ويتهمك فوق ذلك بمفاوضة البرنس أورلوف قائد الجيوش الروسية التي قدمت البحر الابيض المتوسط ، يحملها أسطول يتولى قيادته الاميرال الفنستين . وينذر الصدر الاعظم أنك قد تعقد مع كاترين الثانية معاهدة دفاعية هجومية

فلمعت من عينى على بك علامة استفهام وقال :

— لم اوقع المعاهدة مع جمهورية البندقية بعد . اني ارجأت ذلك الى الوقت المناسب . أما المفاوضات مع البرنس أورلوف فلم تبدأ ، وقد صرحت لمندوبه باستعدادى للدخول فيها عقب سفر الوفد الذي ارسلته مع هدية من الجياد العربية لمولانا السلطان مصطفى الثالث ، ومع الهدية خطاب توسلت اليه فيه أن يعزل عثمان بك بن العظم عن ولاية الشام فان لم يعزله أكون معذورا اذا اضطررت الى قمعه بالعنف . . . لكن من أي المصادر عرف الباشا هذه الاسرار ؟ !

فقال عبد الله بك :

— من حسن بك جوجو

فزمجر على بك ودوى كلامه راعداً . وقال القدر على لسانه :

— إذن يقتل جوجو ، ويعزل الباشا ويسجن الى ان أرى فيه رأيي
فقال عبد الله بك :
— وهل من فائدة ترجى من الوفد وما يحمل من هدية وتوسلات ؟ !
فثاب على بك الى سكينته ، وقال :
— لقد ارسلت مع الوفد شيخا من تلاميذ الجبرتي اسمه العريشى وطلبت من استاذه ان يكتب خطابا شخصياً الى صديقه السلطان مصطفى الثالث يؤيد فيه وجهة نظرى . والتفاؤل أجدى من التشاؤم
فقال عبد الله بك :
— وعثمان بك القازدغلى ؟ ! إنه بالاستانة ، وقد اسدى له المرحوم راغب باشا خدمات جليلة ومكن له عند السلطان ورجال الدولة..ألم تلتمس معونته؟!
فقال علي بك وترقرقت العبرات في مقلتيه :
— رحم الله راغب باشا ! ! لو كان حيا لفزت بما أملت . . . ولا أظن عثمان بك اليوم صاحب حظوة عند السلطان . . . إنه سليم القلب يكل فهمه عن الاساليب الثعلبية السائدة في البلاط والبيئة السياسية في الاستانة... لهذا اكتفيت باهدائه تحياتى وتحيات زوجه وفلذات أكباده
فقال عبد الله بك :
— هذا صحيح ! ! يقال إن محمد باشا النشانجي الذي كان يحاصر الجنرال جالستين فى حصن « شوكزيم » قد انهزم شر هزيمة ، وما كان أحراه ان يسحق عدوه . . لا شك أنه خان الدولة وقبل رشوة عظيمة
فهز على بك رأسه وقال :
— عرفت شيئا وغابت عنك اشياء . ان مولانا السلطان امر بقتل النشانجى جزاء وفاقا على خيانته . . . على أن هزيمته كانت هروبا من القتال بانتظام ، وبذلك بقيت كتلة الجيش سليمة
فقال عبد الله بك زيادة في الحيطة للظروف المجهولة :
— اذا لم يوافق السلطان على عزل عثمان بك بن العظم ونهاك عن الاغارة عليه ، فماذا أنت صانع ؟ !

فقال على بك بلهجة الصرامة :

— اقتل الباشا فى سجنه واعقد معاهدتين واحدة مع جمهورية البندقية وواحدة مع الروسيا

فقال عبد الله بك :

— أخشى ان يثور عليك العلمـاء بدعوي انك حالفت اعداء الدين على خليفة المسلمين

فنهض على بك من فوق الشلتة الوثيرة وتأهب للخروج وقال :

— لـكل عقـدة حل . . . وما دامت نيتي الخير وغايتى الحـكم الصالح ، فالوسيلة الى ذلك مشروعة . . . ساقول للسادة العلماء : إن الخليفة يعقد المعاهدات مع الدول المسيحية . . . وأزيد على ذلك انه حالف المسيحيين الروس ، ضد الفرس المسلمين . . . والمسيحيون كثيراً ما عقدوا مع الاتراك المسلمين معاهدات ضد دول مسيحية . . . الغاية تبرر الوسيلة

جد مساعد

رحل الوفد من القاهرة إلى الآستانة في شوال سنة ١١٨٢ ، فوصلها في أوائل ذى القعدة ، فاذاالسلطان يستنفر الولايات ويستعدى الولاة على الروس ، ويستجيش قومه بكل الوسائل . وإذا الأمر فوضى وأخبار السوء على ألسن المرجفين والاشاعات تقول بأن كاترين الثانية أقسمت بالصليب لترثن الهلال على عرش القسطنطينية وتبعث مجد بيزنطة من لحده

فقال الشيخ العريشي لرفاقه : ينبغي أن يكون الرسول فطنا ألمعياً في أداء الرسالة . وقد رأيتم أن السلطان ووزراءه في شغل عنا بالمحنة . فالرأى أن نحتجز الخطابين ونعرض الرغبة في المثول بين يدى مولانا خليفة المسلمين ، حين تنكشف الغمة فاذا أذن لنا أبرزنا الخطابين

فوافقه رفاقه ووعدهم الصدر الاعظم بلثم الأعتاب الشاهانية عقب ورود الاخبار بهزيعة البرنس جالستين مباشرة ، ليتشرفوا برفع التهاني الى السدة العلية

ومر شهر وشهر والوفد ينتظر على غير جدوى ، والتشاؤم باسم كاترين قد عم كل مكان . ولا غرو فكاترين الأولى زوجة بطرس لها عندهم أسوأ ذكرى ، إذ كيف ينسون فعلتها الشنعاء يوم حصر بلطجى باشا زوجها والنهر من ورائه . فما كان أمامه سوى التسليم أو الغرق أو الأسر . فقضت عند قائد الترك ليلة معربدة دفعت تركيا ثمن لذاذتها فاحشاً من الأنفس والممالك والكرامة والسؤدد . وها هى ذي كاترين أخرى أجنبية ، تسير الجيوش الظافرة وتتولى تنفيذ سياسة بطرس الأكبر المرسومة في وصيته . وهكذا تكون الروسيا مدينة بحياتها وتقدمها واتساع ملكها وبسطة سلطانها ووحدة امبراطوريتها لامرأتين أجنبيتين . وما كان يجب أن تلين رجولة الترك

لـكاترين الأولى بقدر ما لانت كاترين الثانيـة لرجولة الروس وأسلمت القياد للذى يشوقها من فحولهم فحلا بعد فحل . غريب هذا !! وأدخل في باب الغرابة منه أن بطلا من أبطال التاريخ جدد روسيا وبعثها قوة ذات بال في التوازن الأوربى ، يلوذ في وقت المحنة بجمال امرأة تحميه من الهلاك وتصون بلاده من الهوان . . لصدق من زعم أن النساء لهن الأمر والنهي في بلاط الملوك . ومن زعم أن الرجال هم الذين يسيرون دفة الأمورعندما تتبوأ الملـكات عروش الدول ويلقي القدر اليهن بمقاليد الحـكم ؟ فالرجال يحـكمون بشهوات النساء وفتنتهن بينا النساء يحكمن بحذق الرجال وحصافتهم . .

وطالت غيبة الوفد عن القاهرة . فبعث الشيخ العريشى إلى استاذه بما اعتزم هو ورفاقه . فجاءه الرد بتصويب ما ارتأى ، مع توصية مشددة بتصوير الحوادث ومراقبة الحالة بدقة وجمع الانباء عن خيانة النشانجي باشا

وتحرير الخبر أن البرنس جالستين أخرج من قلعة شوكزيم طائفة من عسكره للقتال ، فأخرج النشانجي مثلهم . ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه ، حتى كثر الجمعان واستمر النضال ودارت رحى الحرب الضروس عامة النهار ، وثبت الترك للروس إلى أن أدركهم الليل ، فرجع كلا الفريقين الى مكانه . . فلما كان الغد ، بكر جالستين إلى ساحة القتال ، فألفى الاتراك قد هربوا من مواقعهم ونمت أخباره إلى السلطان فارتاع . وقيل ارتشى وجعل هواه مع كاترين الثانية . فامر السلطان به فقتل ، عظة لاشباهه ومزدجراً ، وبسط العذاب على شركائه فى الخيانة العظمى . وتشاوروا فيمن يخلفه في القيادة العليا . فوقع الاختيار على رجل عالم بالحرب كريم الارومة حى الوجدان ، هو « ملدواني على باشا » فسار عن الاستانة في خيل كثيرة وعدة وافرة وجيش كثيف اجتمع من الامدادات القادمة من أنحاء الولايات العثمانية ، وفي جملتها التجريدة التى يقودها سليمان بك الشابورى . . وجـد في السير تلقاء نهر « الدنيستر » حيث عسكر الجيش التركي على ضفة منه وعسكر جيش الجنرال جالستين قبالته على الضفة الأخرى فبلغه بعد أيام قلائل ، وانضم بمن معه من الجند إلى الجيش التركي فأصبحت عدته مائة الف . وكان بين أمرين أحلاهما

مر : فاما أن يصمد في مكانه وينتظر حتى يهاجمه جالستين ، أو يعبر اليه . ولو تريث عن عدوه ، أتته الأمداد والذخائر تترى ، وتفوق عليه لا محالة . فالأولى أن يعبر النهر وينقض على جالستين وهو في قلة من الجند ، وقبل أن تصله الأمداد .. فتهيأ لعبور النهر . . . وفي يوم ١٧ جمادي الأولى سنة ١١٨٣ هجرية أصدر الأمر إلى الجيش بعبور « الدنيستر »

وفاض النهر فجأة ، وهبت ريح صرصر عاتية . فغرق من الترك خلق كثير وحصدت المدافع من عبر منهم إلى الضفةالأخرى . فاضطر ملدوانى على باشا إلى الفرار بفلول الجيش ، وأوغلجالستين فى ولايتى « البغدان » و « الفلاخ »

واتفق أن الوفد المصري أذن له في المثول بين يدي السلطان غداة وردت الأنباء بأن جالستين فرغ من احتلال البغدان والفلاخ ، وأنه يلقىمن الجيش التركي عناداً عرقله وعاقه عن التقدم . فتعاظم السلطان في خطاب علي بك الكبير وتغيظ منه عليه ، وعلم من خطاب الجبرتى أن العلماء يؤيدونه ووراء العلماء عامة الشعب وأعيانه .

الجيوش التركية تتراجع أمام جالستين ، والبرنس أورلوف فيالبحرالأبيض على رأس جيش يقله أسطول قوي ، والفتنة في بلاد اليونان قد بدأت والباشا حاكم مصر قد أرسل ينذر بأن على بك الكبير قدعقدمع كاترينالثانية معاهدة بمسعى أورلوف أوكاد . . والشريف احمد فى الحجاز قد اغتصب الامارة وطردالشريف عبدالله رغمارادة السلطان ، وها هوذا على بك الكبير يطمع في فلسطين وسوريا ويحتال لاغتصابهما بالتماس الاذن من السلطان بتأديب عثمان بن العظم عقاباً له علىإيواءالسناجق الهاربينمن وجههوإغرائهم به !! فماذا يصنعالسلطان ، وبماذا يجيب علىالخطابين : خطاب علىبك وخطاب الجبرتي ؟ !

أشار الصدر الاعظم باتباع الحزم حيال أطماع على بك ، وايهامه بان تركيا ما برحت فتية قادرة ، وان فيها من القوى الكامنة ما يتغلب على عناصر الانحلال البادية . فبعث السلطان إلى على بك الكبير مع الوفد خطابا يأمره فيه بتجهيز جيش يقوده إلى الحجاز لاعادة الشريف عبد الله الى إمارته ، وإرسال هذا الشريف في صحبة الوفد

هيهات ! !

هيهات أن يصدع علي بك الكبير بأمر السلطان . لقد غادر الوفد مصر وفيها نظام من الحكم يوشك أن ينقض ، فلما غمزه علي بك بمعوله انهار ، وأنشأ على أنقاضه دكتاتورية ساعده على إقامة صرحها الشيوخ وأهل الرأي والنفوذ فيها

سافر الوفد ومصر ولاية تركية تتمتع بنوع من الحكم الذاتى ، وعاد وهي دولة مستقلة

مامضت أسابيع على سفر الوفد ، حتى سجن الحاكم التركي ، فأرسلت تركيا حاكما يخلفه . وقبل مجيئه دس السم لسلفه فمات ودفن في مقبرة الباشاوات من ضريح الامام الشافعي وود لو دفن معه نظام الحكم الذي جعل منه سجانا أو جلاداً للولاة الاتراك . .

وتأهب ، ولما ينفض التراب عن يديه ، لاستقبال الوالى الجديد ــ لا بل تأهب لحبس السجين الجديد في القلعة ، السجن الرسمي للحكام

وتذرع بأوهى الاسباب فعزله . . ونقله من القلعة الى قصر قديم ، من السجن الرسمي حيث يمثل النفوذ التركي الاسمى ، الى سجن بكل معنى الكلمة

كان علي بك ماضياً في خطة تطهيرمصر من خصومه ومنافسيه . وقد أوقع بعرب الحبايبة والهنادى ، وفرغ منهم

لم يبق إلا الصعيد ، من أسيوط إلى اسوان ، ففيه جملة من السناجق غربهم إلى هناك ، وفيه عرب الهوارة يتزعمهم الامير همام ريثما تنزاح من طريقه العقبات والصعاب . وقد وكل للسيف وللابالسة تعزيز سلطانه . فالآن جاءت ساعة البطش وادماج الصعيد في الكتلة الكبرى ، ولا خير في رأس بلا جسم

هكذا كان

— ما أحسب هذا الرجل إلا سيعلو . والله ليتفاقمن شأنه ، حتى يستصغر في جنبه كل جسيم من الأمور

— إنه خليق بذلك . ما رأينا مثله منذ دهر دهير . هيبة مرهوبة على القرب والبعد ، وبصر بتصريف الشئون . قالوا : إن رجلا أدخل عليه ، فأخذته الرعدة واصطكت ركبتاه وتصبب عرقه على وجه ممتقع بلون الجثث وانفرجت جفونه واتسعت حدقتاه ونظر الذعر من عينيه وسقط على الأرض منهداً كجدار من طين ثقل عليه الضغط ، وعندي أن قيام هيبته في نفوس رجاله هو سر نجاحه

— وما تغني الهيبة إذا لم يعززها عزم صارم وهمة قعساء وتجربة حصيفة وخبرة صادقة ومعرفة بالناس والأحوال . هذا إلى أن الرجل ـ أعني علي بك الكبير ـ لا يستبد برأيه ، فقد اتخذ له من العلماء ووجوه الرجال بطانة وأصحاباً يستشيرهم ويصدر عن رأيهم في كبريات المسائل

— إن شخصية علي بك هي كل شيء في حياته . . . حلم ووقار وسكينة ونشاط

— تحت حلمه جهل ، ومن وراء وقاره ظرف ورقة ، وخلف سكينته براكين . . .

— خرج هذا الرجل من أحشاء الدهر فذاً . . . سودته نفسه ، فنعم المثل هو يضرب للعصامية

— عصامي ؟ ! لقد ظلمته إن كنت بالرجال خبيراً . وأغلب ظني أنك لم تظلمه لأنك تجهله ، ومعذور أنت حين تجهله ... العصامي أناني موفق

لخير نفسه ... أما أمثال علي بك الكبير ، فابطال . . والبطل أناني موفق لخير الأمة ، أو لخير الناس أجمعين ، يشعر أن الأمة تنطوي فيه فحبه لذاته إيثار للمجموع .

— ألست قد عرفت أنه أخذ في التفتيش عن الأموال فقبض على أولاد « سعد الخادم » بضريح سيدي أحمد البدوي واستصفى أموالهم وأخرجهم من طنطا ومنعهم من سكناها ومن خدمة المقام الأحمدي . . ؟ ! ألست قد عرفت أنه صادر الكثيرين من كبار التجار مثل العشوبي والأمين على أموال جليلة ..؟! ثم أليس قد ضرب المعلم اسحق اليهودى « معلم الديوان ببولاق » حتى مات وأخذ منه أربعين الف محبوب ؟ ! . . أليس قد فرض على كل قرية مائة ريال وثلاثة ريالات «حق طريق » ، واغتصب من الأقباط مائة الف ريال ومن اليهود أربعين الف ريال ؟ ! هذا إلى تركات وضع يده عليها بغير حق . وقد بلغنى أنه لم يرسل إلى السلطان هذا العام حبوباً ولا غلالا ولا أموالا . . فهل مصادرة أموال الناس واغتصاب أموال الجمهور في صورة ضرائب باهظة إثرة منه أم إيثار ؟ !

— المال الذى استصفاه من أولاد سعد الخادم ، أنفقه في بناء الجامع الأحمدى والقبة والسبيل والقيسارية . والتجار الذين صادرهم ، أثروا من غش الجمهور ورفع الأسعار بلا مبرر فعاقبهم ليتعظ غيرهم ،فكان أن اعتدلت الاسعار ورخصت نفقات المعيشة . . . وقد أعطى الناس الأمن بثمن بخس ضرائب باهظة لكنها محتملة . وقد تعلم أنه غل أيدي السناجق والكشاف والملتزمين عن جيوب الفلاحين . . . اليوم يسافر الرجل من قرية إلى قرية بالليل ، ومعه ما شاء من الدراهم والدنانير ، فلا يسطو عليه قطاع الطريق واللصوص . واتفق أن ناساً ناموا بالبرية ، فما تجاسر أحد على سلب متاعهم . . . إن الامن لا ثمن له . والامن لا يتوطد من غير الشرطة والخفراء . . . أما ما فرضه على الاقباط فكان بايعاز المعلم رزق وزير ماليته ، لانهم في الغالب من جمهور الملتزمين أو الكتاب الميسورين ودع عنك الدفاع عن اليهود فقد دفعوا ما فرضه عليهم عن طيب خاطر

— يقال انه جمع النقود الذهبية ليسك غيرها باسمه . . ويتحدث الخاصة بأنه سينادي بنفسه ملكا على مصر

— ليته يفعل ذلك . . لقد قامت هيبته عند الناس وأمنت به الطرق واستقامت الامور وجعل لمرافق البلاد المختلفة حظاً طيباً من اهتمامه . ورد النظر فى جليل الامور وحقيرها إلى ذات نفسه . وأنشأ أداة صالحة للحكم . وكفل العدل للجميع بمعاقبته على الرشوة وتعذيبه الوسطاء وسماسرة الظلم . . إن حبه في كل قلب ، ما في ذلك شك

— بل فى ذلك شك وشك ، فانه ليس أثقل على الجمهور من حاكم يشتد عليهم في فرض الضرائب

— لقد شهدت معي صلاة الجمعة في جامع الداودية وسمعت الشيخ عبد ربه الخطيب يدعو له بعد الخطبة ، فماذا رأيت ؟

— رأيته اظهر التغيظ على الشيخ عبد ربه .. استدعاه وقال له : « لماذا دعوت لي على المنبر أقيـل لك إنى سلطان ؟ ! » فقال الشيخ : « نعم انت سلطان » . . . فأمر بضربه

— وكيف كان حال الناس لما طرح الشيخ عبد ربه ارضاً ؟

— لقد ضجوا وتذمروا إشفاقاً على ذلك الشيخ الورع

— ورضى عن دعائه لعلى بك أيضاً

— انظر ، انظر . . . !! ها هو موكب « البيومى » قادم

— والشيخ البيومى على بغلته يلبس قميصاً ابيض وطاقية قد لف حولهـا شملة حمراء . . . صيفاً او شتاء ، لا يغير هذا الزي

— وأتباعه وأنصاره عامتهم من اللصوص وقطاع الطريق

— ماذا تقول . . . أهؤلاء الأئمة المجرمون قد اهتدوا على يدي هذا الولى الصالح ؟ !

— اعجب من هذا ، انه يقيدهم بالحديد ويشدهم بالسلاسل إلى العمد في مسجده ، فلا يتململون . . وهم اطوع له من العبيد واشد اخلاصاً وامانة من الكلاب

— امامهم يسيرون بين يديه والمراوات والسيوف الخشبية في اكفهم مشرعة .. لعلهم يرمزون بها إلى سالف حياتهم ، قبل التوبة

— لقد نسيت !! نسيت ان اقول لك ان « البيومى » له على الكبراء في مصر وتركيا دالة وله نفوذ . . الموكب يقترب . .دعنا نذهب

— لا غرو ، انه يروض المجرمين والكبراء منهم . .

ماذا بعد الحجاز

إذا لم تـكن الشام ، فالحجاز . وإن يكن السلطان قد كف أطماع على بك الـكبير عن سوريا ، فني الحجاز واليمن بعض العزاء . ومن وضع رجـلا في الحجاز ورجلا في مصر فقد طوق الشام شرقا وغربا وجنوبا . ولولا الجيوش الروسية المرابطة في جزيرة « كورش » وساقر و « لمنوس » من جزر بحر الارخبيل ، ولولا انشغال ولاة سوريا بتحصين الثغور والالتفات كل الالتفات إلى ارتقاب إغارة أسطول الاميرال الفنستون عليها من ساعة إلى ساعة ، لمـا طاب لعلى بك الـكبير أن يسير الجحافل إلى الحجاز جحفلا في أعقاب جحفل

ففى ١١ ربيع الأول من سنة ١١٨٤ هـ احترق أسطول تركيا عقب انتصاره على الاسطول الروسي. أشعلت فيه النار حراقتان روسيتان، فدل ذلك على خلق متأصل في جبلة الاتراك : يقظة مرهفة في اللأواء وحذر في أوقات اللقاء ، وغفلة إذا كتب لهم الفوز وذهول بنشوة النصر

وفي الثاني والعشرين من ربيع الاول من هذا العام نفسه ـ سنة ١١٨٤ هـ وردت الانباء بأن جيش محمد بك أبى الذهب انتصر في الموقعة التى دارت رحاها قرب « ينبع » وانجلت عن قتل عامل الشريف احمد عليها . وتوالت الانتصارات في الحجاز .. ففي ٩ ربيع الآخر حضر إلى القاهرة « نجاب » ينبيء بدخول أبي الذهب مكة وهروب الشريف احمد منها وتركه خزائن المال والسلاح بحالها ، فنهبت وأجلس الشريف عبد الله مكانه

وسـير أبو الذهب جيشاً إلى جدة بقيادة حسن بك فافتتحها فلقب « الجداوي » لجميل بلائه في هزيمة عسكرها واقتحام حصنها في مدة وجيزة وبأرواح قليلة وخير القواد من حقن دماء رجاله ودماء عدوه وربح المعركة .. فتابعت القبائل من أقصى الجزيرة ايفاد الرسل يبذلون له الطاعة وبعث الشريف

احمد يطلب منه الامان ويعرض عليه أن يقره على بلك الكبير في الحجاز على خراج يأخذه منه . فلم يؤمنه ولم يقنع منه إلا بالتماس الصفح من الشريف عبد الله ففارق البلاد

وانطوت الجزيرة إلا أطرافها تحت راية مصر وخطب الشريف عبد الله لعلي بك ، وثنى بالدعاء له بعد الدعاء للخليفة ، ولقبه بخاقان البحرين وسلطان البرين

وقفل أبو الذهب راجعاً إلى مصر من طريق البحر الاحمر ونزل بالسويس لسبع بقين من ربيع الآخر ، وجد في السير فبلغ بركة « الحاج » في أوائل رجب ، حيث وجد في استقباله طائفة من كبار السناجق . فقضى ليلته هناك وسار من الغد بموكبه فدخل القاهرة في الثامن من شهر رجب . واجتاز باب النصر في شهر رجب . فرحبت به عاصمة الفاطميين ، وتهافت على الهتاف له صغار السكان وكبارهم ، وقطع مسافة ما بين باب النصر والقلعة بجهد جهيد حتى لقد زوحم بالمناكب ، وعوق عن المسير مرات واضطر أن ينصت لقصائد الشعراء في الطريق العامة . وكان كلما أطبق عليه الجمهور رمى ببدر الذهب من منديل بين يديه ملأه خازنداره ألف مرة ومرة . فيتفرقون ويستانف هو المسير

وبلغ باب العزب بشق الانفس . ولا والله ما تعب في حرب العرب مثل تعبه في شق طريقه وسط حشد من الناس ، خيل له معه أن الارض أنبتت ناساً والسماء أمطرت خلائق بعدد الرمل والحصى والتراب

وعند باب العزب عانقه على بك الكبير وقبله بين عينيه وصافحه العلماء والوجهاء . وأغلق الباب لئلا يتسرب سيل الشعب إلى ساحة القلعة ، ونودي في الناس أن اذهبوا إلى المساجد وصلوا لله شكراً على ما أنعم به من نصر مبين . فتفرق الكبار وبقي الاولاد ونسوة من بنات البلد خلعن العذار ورقصن على دق الطبول

وبعد أيام توجه أبو الذهب في جيش إلى أسيوط للتحكك بشيخ العرب همام واثارته للقتال ، فوصلها والفتنة نائمة ، وبوغت همام ومن لاذ به واتحد معه على الانتقاص من أنصار كشكش والقاسمية وجماعة الفلاخ ومناو وأتباع خليل بك وكانوا قد أجمعوا على مباغتة أسيوط والزحف منها صوب القاهرة .

وحرضهم على الخـلاف توكيد الباشا الجديد لهم : ان علي بك إذا فرغ من الحبايبـة ، تفرغ لقتالهم . فقال همام : « نصالح أبا الذهب ، فلسنا نأمن ان يقهرنا إذا نازلناه . لقد أخذنا على غرة ، والـكيس من يلتمس الصلح عنـد تحقق الهلاك . والصلح من خدع الحرب »

فقـال حلفاؤه من السناجق المشردين : « هو ذاك . . نتهادن ، الى ان نتجهز للوثوب سراً » . وجرت الرسل بالصلح بين الفريقين ، فقبـل همام شروط أبي الذهب ، على تحيفها من هيبته وسلخها أراضى وقرى عديدة من اقطاعاته . وعاد أبو الذهب الى القاهرة . . فاذا بمولاه يشك في حسن نية همام . واذا بسليقته السياسية تـكشف المخبوء من الاغراض وراء هـذا الصلح واذا بدهائه يهتدى الى شرط يفسد الصلح

بعث على بك الـكبير الى الشيخ همام ، ينبئه انه يقر الصلح على ان يطرد من بلاده جميع السناجق والـكشاف المنفيين . فـكان ذلك نذير القتال على كل حال . فأشار همام على السناجق أن يخرجوا الى موضع يزحفون منه على أسيوط . ولن يعجزهم دخولها والمدافعون عنها رهط قليل

فقالوا : نعم الرأى . .

واستعدوا للزحف من برديس . . فسقطت أسيوط ، وحصنوها وأمدهم همام بالرجال والمال والخيل ، واستعدوا للنضال وشعارهم « الحياة أو الموت »

وكان على بك من جهته يتوقع ذلك ، فعين أيوب بك أميراً على أقليم أسيوط وسيره في جيش كثيف ، وأمده بنخبة من الشجعان !

فتباطأ أيوب بك في الهجوم على أسيوط ، لما رأى منعتها وكثافة من يذودون عنها . . فنهض أبو الذهب اليها يقود الجحافل براً وفوق النهر . ونصب خيامه عند « جزيرة منقباد »

ففرح من باسيوط من الأجناد والبـكوات ، وأيقنوا أن محمداً بك أبا الذهب جاء إلى الموت يسعى . فقد تحدثت « الزايرجة » بأن حتف « محمـد بك » قد حان وأنه سيخر صريعاً في المعركة الوشيكة . وقالوا : ننسل بقضنا وقضيضنا والليل مرخي الذوائب فندور من خلف الجبل وننقض على عسكر محمد

بك أبي الذهب عندالسحر . ونضع فيهم السيف ونصب عليهم من المدافع شواظ جهنم . لن تكذب الزايرجة . لقد أفل نجم محمد بك وآذنت شمسه بالمغيب

واتكالا على ما تقوله الزايرجة ، خرج الجيش المدافع عن اسيوط يحدوه الدليل . . واستحثوا الخيل فانطلقت حتى انبثق الفجر . وأضاء الأفق . . . فتبين القوم أن الدليل ضل وأنهم على مسيرة ساعتين من جيش أبي الذهب وعلى مسيرة ساعات ليست قليلة من اسيوط . فقالوا : لامفر من الصدام والنصر مكتوب لنا لامحالة وأن الحظ قد تخلى عن محمد بك أبي الذهب . وبالحظ السعيد نتبوأ عليا المراتب ونفوز بالفتح المبين . وحملوا على أعدائهم حملة صادقة. وتجاولوا حصة من النهار وتضاربوا بالسيوف . . وعند العصر صاح فارس : «أين محمد بك ؟ ! ليبرز الينا فانه وترنا ولنا قبله ثأر »

فبرز لهم فارس فى لفيف من الصيد الاشاوس . فأحاطوا به . ومالت كفة المعركة الى ناحيته : وحميت الحرب ، فسقط الفارس فاقبلوا عليه وما فيهم من يشك في أنه محمد بك أبو الذهب وارتدوا عنه وما فيهم إلا حانق على الحظ ذلك أن الذي خر صريعاً هو محمد بك أبو شنب وأما محمد بك أبو الذهب فانه كان قد طوقهم وشدد عليهم فألقوا السلاح وطلبوا الأمان . . . ولات حين أمان . . .

ودخل أبو الذهب أسيوط من غير قتال وأقام بها أياما ثم ارتحل ميمما صوب أسيوط للايقاع بشيخ العرب همام وضربه الضربة القاضية ـ بالحيلة لا بالسيف

وقد نجحت الحيلة ووثق « اسماعيل أبو عبد الله » بوعود أبي الذهب فتقاعس عن نصرة ابن عمه الشيخ همام وكف عن القتال طمعا في أن يخلفه على بلاد الصعيد فاغتم الشيخ همام وقال : « تلك بداية النهاية لقد ذلت الهوارة ودخلوا في طاعة علي بك وقدموا أعناقهم للنير بانقسامهم »

وخرج من فرشوط همام هائماً على وجهه فمات كمداً ، على ثلاثة أميال منها، ودخل أبو الذهب فرشوط

الحيلة تفسد الحيلة

على غير انتظار ، عادت الجنود المنتصرة الى القاهرة . وكان في الامنية ، أن تكون في ذلك الوقت ــ أواخر شهر رجب سنة خمس وثمانين ومائة والف ــ قد اقتحمت بلاد الأناضول ، ووقفت على أبواب الآستانة . ففى شهر ربيع الأول من هذه السنة وردت البشائر من الشام ، بأن الجيش المصرى الذى يقوده محمد بك ابو الذهب ، قد استولى على دمشق ، وجد في مطاردة الجيش التركي الذي يقوده الصدر الاعظم ، حتى وقف العدوان في ظاهر حلب . حينذاك أمر على بك الكبير سلطان البرين وخاقان البحرين ، بأن تقام الافراح ثلاثة أيام بلياليها . فازينت القاهرة وبولاق ومصر العتيقة وزخرفت المتاجر والقصور ، ونضدت المصابيح والشموع ، وأوقدت المشاعل في الميادين والطرقات . وتنافس الكبير والصغير في اظهار اغتباطه ، فأقيمت الولائم وشاعت الحفلات في كل مكان . ودقت الطبول ، وصدحت المزامير وأطلقت المدافع (وعملوا شنكا وحراقات)

وللقاهريين العذر في خروجهم عن الحد المعقول في إفشاء ما خامرهم من سرور ، فليس بالكثير أن يطربوا لاستقلال مصر واسترجاعها الممالك التى استظلت برايتها على عهد السلطان الغوري . وكانت فرحهم بمثابة رد فعل لذكريات الفتح العثمانى . وهل نسى الشعب المصري أن سليم الاول ، أغار على الامبراطورية المصرية من الشام فسحق جيش مصر في « مرج دابق » قرب حلب ، وقتل السلطان قنصوه الغورى . وتدفق العثمانيون كالسيل ، لا يقف في طريقه شيء الا اكتسحه . وقفل السلطان سليم راجعاً الى بلاده ، ومعه الخليفة العباسي ، وسائر الحذاق من الصناع ، وأحمالا لاعدد لها من نفائس الكتب ، ونفيس الجوهر والذهب الابريز ؟ ؟ هل نسى القاهريون الدماء

التى أراقها سليم الاول في القاهرة ، حين دافع عنها « طومان باى » منزلا منزلا فجوزى على استبساله بقطع رأسه وتعليق جثته على باب زويلة

لا عجب اذا ذكر المصريون هزيمة الغوري ، بانتصار أبي الذهب على العثمانيين !

والشيء بالشيء يذكر. فأى عجب في أن يذكر المصريون هزيمة الغورى بعودة أبي الذهب وجيشه على حين فجأة . ومن غير أخبار تنبيء بهزيمته في معركة حاسمة

ومن ثم وجدت الاشاعة جوها الذي تتفاقم فيه وتتشعب : فمن قائل إن أبا الذهب اتفق مع الصدر الاعظم على سيده وأستاذه على بك الكبير . ومن قائل إنه اندفع في تعقبه جيش الاتراك . فاذا به يجد نفسه في فخ لم ينقذه منه سوى لياذه بالفرار . ومن قائل ان عودته تنسب الى فراغ الذخيرة والميرة . وأن لا خوف من رجوعه الى مصر ، لان الجيش العثماني سيشتبك عما قليل في معارك مع جيوش « كاترين الثالثة » قيصرة روسيا ، تنفيذاً لوصية بطرس الاكبر . وقائل يقول : ان استدعاءه كان بأمر على بك الكبير . لأنه كره أن يتعاون الروس والمصريون على هزيمة جيوش خليفة المسلمين . وهكذا استمرت الاشاعة تصور فنونا من الحدس والتخمين ، وظل الناس في القاهرة وغيرها من الحواضر يرجمون بالغيب . ولا أحد يعرف السبب في عودة أبى الذهب والجيش المصرى من سوريا وفلسطين

على أنه إذا كان الشعب قد راح يظن بهذه العودة الظنون ، فان علي بك الكبير كان يعرف الباعث عليها ، كما يعرفه أبو الذهب وقواد جيشه وكلهم من مماليك علي بك الكبير ، رقاهم وجعلهم سناجق وولاهم المناصب العالية

ومنذ عودة أبى الذهب وقواده ، الى ثالث أيام العيد لم ينقطع للناس حديث عن تلك المباغتة

عرف على بك الكبير أن أبا الذهب فاوض الصدر الاعظم سراً ، فوعده إن هو عاد الى مصر ، أن يوليه مشيخة البلاد ، وأن يبسط نفوذه على فلسطين وسوريا . وعرف أن القصاص من أبى الذهب ومن قواده ،

ربما أدى الى فتنة لا يأمن عاقبتها ، لاسيما أن جيوش العثمانيين ، من حدود مصر قريبة دانية

* * *

ما لايدرك بالعنف ، يدرك باللين والكياسة . وكم فعلت السياسة ماعجزت عن فعله الحرب ، وقد تفتك بخصمك وتمزق شوكته بالدهاء ، على حين تفشل القوة

فكر على بك في أن يستغل المثل المشهور « فرق تسد » . فعول على أن يشطر حزب أبي الذهب شطرين يفوز هو باعظمهما شوكة . ومثله اذا فكر أصاب ببصيرته مواطن الضعف من خصمه ، ومثله إذا وقع على موطن ضعف سدد اليه طعنة نجلاء ، وقل أن يخطيء الهدف

كان أيوب بك ، ثاني القواد للجيش المصري بعد أبي الذهب ، يعني أنه كان مساعد القائد العام ، والشأن بين الجند كالشأن بين خلق الله قاطبة : كل يصبو الى الرئاسة ، ويتطلع الى تبوؤ أعلى المناصب . والمنافسة طبيعية بين أمثال أبي الذهب وأيوب بك . ولا بد أن أيوب بك كان يشرئب الى منصب أبي الذهب . ومن يدري ، لعله سعى سعيه الظاهر والمستور ليتبوأه

إنها لخطة مثلى ! بل هي الخطة الوحيدة الناجعة في تمزيق الحزب الذي انطوى تحت لواء أبي الذهب على طمع في المناصب والمال عندما تصير اليه مشيخة البلد .

الخطة بسيطة . ونجاحها محقق ــ يضرب هذا بذاك . ويجعل من الحميمين عدوين متنابذين . وهكذا صدرت أوامر علي بك ، الى أيوب بك بالذهاب الى جرجا حاكما عليها . فصدع أيوب بك بالامر ، وسافر الى مقر وظيفته الجديدة ، تلك التي كانت مطمح أنظار السناجق جميعاً . وبسفره من القاهرة ضعف شأن أبي الذهب ، وتضاءل حزبه ، واصبح في القاهرة كأنه سجين في قبضة مولاه علي بك الكبير

السرعة في بعض الاحيان مطلوبة ، وقد يكون في البطء الندامة . وقد انتظر علي بك حتى انقضى شعبان ورمضان وأيام العيد من شوال . وذاك منتهى

التريث وانتظار فرصة حتى تسنح . وقد ظن على بك ان الفرصة سنحت في الرابع من شوال ، فاستدعى رجلا من أخلص رجاله وأوفرهم ولاء ويدعى على بك الطنطاوى . وأمره أن يذهب بطائفة من الجند ويطوق قصر محمد بك أبي الذهب ، ويضيق عليه الحصار تحت جنح الدجى . ثم ينقض عليه عند ما ينبلج الفجر

العصفور في القفص ! ! من أين لابى الذهب أن يفر . وعلى كل درب وحارة توصل الى قصره ، جنود محشودة ! ؟

لن تطلع عليه الشمس الا أسيراً . . .

وطلعت الشمس . وهذه الجنود نفسها قد ركبتها الحيرة . أين ذهب أبو الذهب ومن أى طريق سار . . ؟ ! انه ليس بقصره غير الحريم . وهذا الحريم مقدس لان أبا الذهب يصاهر على بك ! . .

الحيلة تفسد الحيلة . . كان ابو الذهب خبيرا بسيده واستاذه علي بك . يفهم أساليبه ولم يبق بعد سفر أيوب بك ، وبعد تضعضع حزبه هو ، إلا أن يتوقع القبض عليه من آن لآن . فلما حوصر قصره ، لم يقع عليه نبأ الحصار بغتة . وكل ما اهتم له من الخبر هو سؤاله عن قائد الجند الذى يحيط بقصره . فقيل له انه على بك الطنطاوى . وفي الحال تزى بزيه ، وتنكر بحيث يظنه من يراه ، أنه على بك الطنطاوى وليس ابا الذهب . وانسل في الظلام وحيداً فريداً حتى اقترب من رأس عطفة ازدحمت عندها الجنود المحاصرة . ثم صاح : أين جوادى ؟ !

فقال له أحد الجنود وقد حسبه قائده على بك الطنطاوي : انك لم تتركه هنا يا مولاى .

فقال ابو الذهب : تذكرت . انى قد ترجلت عن جوادى في رحبة تقع على رأس عطفة أخرى

قال ذلك ، وأدار اليهم ظهره ، ومضي في طريقه

عندما يعاكسنا الحظ !

هذه الجحافل التي وصلت أسيوط ، وعسكرت خارجها ، بدأت زحفها من « البساتين » أيام كانت البساتين ضاحية من ضواحي القاهرة ، ومحطة حربية ومكاناً طالما التقت فيه جيوش المتنابذين على السلطة من السناجق . بدأت زحفها وهي رجل واحد ، هو ذلك الذى هرب بحيلة أفسد بها حيلة ـ هو محمد بك ابو الذهب الذى تنكر بزى على بك الطنطاوى ، وفر من داره والظلام سرادق منصوب . وما زال يجد السير على الاقدام حتى بلغ ظاهر القاهرة . وطلع الصبح عليه وهو بالبساتين . وهنالك حصل على جواد وزاد. فانطلق ميمماً نحو الصعيد في سرعة البرق الخاطف . فلم يكد النهار يولج فى الليل حتى نزل ضيفاً على صديقه « على كاشف » ، في بلدة « أولاد يحيى » . وعلى كاشف هذا من الناقمين على استاذه على بك الكبير ، شرد الى هناك وحرم عليه الخروج من تلك المنطقة هو ورهط آخر من السناجق السابقين ، ممن عصف بهم على بك وأزاحهم عن مناصبهم ، وولى مكانهم شباباً من مماليكه

وفي الليل ، اتفق محمد بك أبو الذهب ، وعلى كاشف على الرحيل يصحبهما بقية البكوات ، ومن يلوذ بهم من مماليك واتباع . فناموا حصة من الليل ، ونهضوا يتأهبون للرحيل . ومن ثم زحف ذلك الجيش الصغير متجها نحو أسيوط . وكان أمره كالنهر يبدأ جدولا صغيراً ، ثم لاتزال تنصب فيه النهيرات فيتسع مجراه ، ويعمق غوره ، ويشتد تياره

وهكذا صار الرجل الواحد جيشاً عرمرما ، ارتاع لمقدمه أيوب بك حاكم جرجا الذي تولى منصبه منذ أسابيع ... ووصل مع الشفق الى أسيوط قبيل رمضان بأيام

على أن ايوب بك لم يطل به جزعه وارتياعه ، اذ وجد في الضحى

صديقه ورئيسه القديم أبا الذهب يستأذن في الدخول عليه. فسعى اليه بنفسه ، وتلقاه لدى باب الايوان بالتأهيل والترحيب ، ودعاه للنزول ضيفاً عليه .
فدخل الى الايوان ، فقدمت له القهوة ، وادير ت شبكات التبغ ، وتبودلت التحيات المألوفة

قال أيوب بك : كيف تركت القاهرة ؟

فانطلقت من صدر أبى الذهب آهة ، كالتنهد الخفيف المكتوم ، ونظر فى وجه أيوب بك فاحصاً وقال : تركتها على اسوأ حال

فقال أيوب بك : لست أفهم ما تعني

فأرسل عليه محمد بك أبو الذهب من عينيه شعاعا كاشفاً وقال مبتسما :

— وهل تراني اتركها الا على اسوأ حال . وأنت اعرف مني بالسبب . وما جئتك الا لائذاً ، فما رأيك ؟

فازداد ايوب بك تحرزاً ، ثم اطبق مابين عينيه ، وقال بصوت فاتر كيس :

— رأيي استبقيه الى أن تصارحني برأيك

فاستوى أبو الذهب في جلسته ، وتحرى الجد في كلامه وقال :

— لعلك على عهدنا الذى أبرمناه ونحن في حلب

فظهر على أيوب بك كأنه قد تذكر شيئاً القاه جانباً في حافظته ، وقال

— نعم . لقد حلفنا على المصحف وأقسمنا على السيف أن نكون رجلا واحداً يناهض سلطة مولانا علي بك

فقال أبو الذهب والاغراء يقطر من ألفاظه :

— كنا في القاهرة سجناء ، لا نأمن ان يسطو علينا جنود الانكشارية الذين استعبدهم على بك بالمال ، والآن . . .

فقاطعه أيوب بك واضعاً يده على كتفه :

— والآن نحن في أسيوط ومعنا جيش ، وفي وسعنا ان نثور ، أليس هذا ما أردت أن تقول ؟

فأمن ابو الذهب على كلامه بهز رأسه وقال

هو شيء كهذا

فقال ايوب بك وقد لاحظ من عيني محدثه أنه يقتضيه الوفاء لقسمه :
— سيكون عندنا متسع من الوقت للكلام في المساء

فاستصوب أبو الذهب ان ينسحب من موقفه هذا ، ونهض مستأذناً في الانصراف . فقام ايوب بك وشيعه الى الباب ، وطفق يؤكد دعوته اياه الى تناول العشاء في داره . وانصرف محمد بك ابو الذهب من حيث أتى . وعاد ايوب بك الى الايوان لمباشرة الاحكام . وقد فهم من حديث ابي الذهب انه لا بد قد فر من وجه علي بك الكبير وجاء الى الصعيد فانضم الى السناجق والكشاف الذين نقموا على بك وفي جملتهم سناجق « القاسمية » ومماليك رضوان بك الجلفي الذين يعرفون باسم الجلفية ، وأمثال هؤلاء ينضمون الى كل ثائر على سلطة على بك

استغرق ايوب بك فترة ليست قصيرة ، تزاحمت فيها افكار وصور وذكريات ، بعضها قريب واكثرها بعيد . ثم صحا من غفوته القصيرة على صوت الحاجب يقول له :

— مولاي ان بالباب رسولا يحمل خطاباً من علي بك الكبير

فأمر ايوب بك بادخاله عليه في الحال ، وقطع الرسول ما بين الباب والاريكة التي يجلس عليها ايوب بك مسرعا ، ولما صار قيد خطوات من الاريكة قبل الأرض وقال :

— معي خطاب ارسلني به اليك مولاى على بك الكبير

ثم اخرج من جيبه خطابا ، كتب على ورق غليظ وقدمه الى ايوب بك وقال :

— اني في انتظار الرد كي اكر راجعاً من فوري

فتناول ايوب بك الخطاب وفضه وقرأه ، ثم امر بورق ومداد فجيء بهما . وكتب لمولاه على بك رداً على رسالته ، ودفع بالرد الى الرسول فأخذه وطواه في جيبه . واستأذن في المسير ، ثم انطلق مسرعاً نحو الباب

اسرع الرسول الى جواده فامتطاه . وحفزه بمهمازه ، فوثب الجواد يعدو ظن حرس ايوب بك وايقن ايوب بك نفسه ، ان الرسول سوف يقف

في حضرة على بك الكبير في عصر اليوم التالي او مغربه على الاكثر . وما علموا ان الرسول ، ما كاد يغادر اسوار اسيوط ، بنحو فرسخ، حتى لوى عنان جواده الى معسكر محمد بك أبي الذهب ، ومضى صعداً الى خيمته فاذن له بالدخول . فمثل بين يديه واخرج من جيبه الخطاب الذى رد فيه ايوب بك على رسالة على بك - ناوله الرد من غير ان يفوه بكلمة . وان كانت ملامح وجهه قد تكلمت فأفصحت عن جذله بنجاحه وشرهه الى المكافأة على هذا النجاح

فافتض أبو الذهب الخطاب ، وقرأه بامعان . ووجهه يتعاوره العجب والسرور - العجب من نفاق أيوب بك ، والسرور من انه قد أتاح له الحظ كشف مؤامرة دبرها على بك لاغتياله في أسيوط

وشرح ذلك ، أن على بك لما فر أبو الذهب متنكراً في زي على بك الطنطاوي بعث خلفه في الصعيد عيونا وجواسيس يوافونه بحركاته وسكناته . فعلم ان أبا الذهب جمع جيشاً صغيراً من فلول السناجق والمماليك المنبوذين وجد في السير إلى أسيوط ، على أمل أن يستميل إلى جانبه أيوب بك . فبعث خطابا مع رسول إلى أيوب بك يعده فيه أن يجعله « دفتردارا » إذا جاءه برأس محمد بك أبي الذهب . وأشار عليه بأن يدس له السم في الطعام هو ومن معه من زعماء المنفيين في الصعيد

ولحسن حظ أبي الذهب ، اشتبه واحد من مماليكه في هذا الرسول ، حينما اجتاز المعسكر ، فركب جواده ، فسرعان ما تبين له انه من حاشية على بك الكبير . . . فنادى عليه ، فلم يلتفت اليه الرسول وضاعف من سرعته . فاهاج المملوك اخوانه في معسكر أبي الذهب . فانبروا يتسابقون وراء الرسول الذي أدركه الرعب فجذب اليه عنان فرسه فوقف الجواد في حلقة من الفرسان فتادوا الرسول الى صيوان محمد بك أبي الذهب

قال محمد بك أبو الذهب للرسول : « هل قدمت من القاهرة ؟ »

فقال الرسول : « نعم . جئت بخطاب من مولاى على بك إلى أيوب بك »

فقال أبو الذهب : « لن أدعك تذهب الى أيوب بك الا جثة هامدة »

فقال الرسول : « واذا دفعت اليك بالخطاب ، ماذا يكون من أمري ؟! »
فقال أبو الذهب: «يكون جزاؤك مال ووظيفة أشرف من حمل الخطابات»
فأخرج الرسول الخطاب من جيبه ودفعه الى أبي الذهب . فاختطفه من يده وافتضه وقرأ مافيه . وأطرق هنيهة يفكر ثم رفع رأسه وقال للرسول :
— إذا جئتني برد أيوب بك على هذا الخطاب اعطيتك مائة دينار اخرى . وجعلتك كبير حجابي

ثم أمر خازنداره ان يعطي للرسول مائة دينـار . . . فقبضها الرسول وأودعها أمانة عند صديق له من مماليك أبي الذهب . وركب جواده وذهب الى ايوب بك ، وأعطاه الخطاب . وعاد بالرد الى ابي الذهب ، فعجب من رد أيوب بيك وامتلأ قلبه سروراً

فلما كان المساء ذهب ابو الذهب في خاصة رجاله ومعه السناجق من القاسمية والجلفية الى قصر أيوب بك تلبية لدعوته الى العشاء . فوجدوا ايوب بك في انتظارهم بقاعة الاستقبال . فأخـذ كل مكانه من الطنافس الوثيرة ودار الحديث بين ايوب بك ومحمد بك ابى الذهب

محمد بك ابو الذهب : هل يا ترى نحن على العهد وصدق الولاء كما كنا قبل ان يجتذبك على بك الى صفه بتعيينك حاكما على جرجا

فقال ايوب بك : نحن على العهد والولاء .. لـكن ما الذي جعلك تشك في ولائي وتتهمني في اخلاصى ؟

فقال ابو الذهب : بلغني ان على بك ارسل اليك خطابا مع رسول وصلك اليوم

فقال ايوب بك : ربما كان ذلك صحيحاً

فرفع ابو الذهب عينيه الى السقف متفادياً ان تقع عيناه على عيني ايوب بك ، وقال : « وبلغنى انك رددت على هذا الخطاب . . ويعلم الله ماذا يصيبنا اذا أكلنا من طعامك »

فحلف ايوب بك انه لم يكتب رداً ، ولم يصله خطاب

فتظاهر ابو الذهب بتصديقه وقال ـ ما جزاء من ينقض العهد ويحنث في يمينه

فقال ايوب بك : يقطع لسانه الذي حلف به وتقطع يده التي امسك بها المصحف

فوضع ابو الذهب يده في جيبه وأخرج منه بلطف خطاباً مفضوضاً وأعطاه لأيوب بك وقال له ـ ألست انت الذي كتبت هذا الخطاب رداً على خطاب على بك ؟ !

فارتبك ايوب بك ولم يحر جوابا . وقال موجها الخطاب للحاضرين :

ـ هيا ننفذ في ايوب بك ما حكم به على نفسه . انه هو الذى كتب هذا الخطاب الذي اعطيته إياه الآن ، وفيه يعد مولاه علي بك ، بان يدس لنا السم في الطعام هذه الليلة .

ثم اعطى الخطاب للسنجق الذى بجواره ليطلع عليه الحاضرون .فصاحوا بعد تلاوته قائلين : « هذا نفاق . . لابد من الانتقام »

وهجم على ايوب نفر وأوثقوا أكتافه . وتقدم مملوك بسيفه مسلولا وأهوى به على يد ايوب بك ففصلها عن جسده . ثم امسكوا برأسه واجتذبوا لسانه من فمه . وأمسكوا اللسان « بصنارة » وهم مملوك به ليقطعه بخنجره . فتخلص أيوب بك من وثاقه ، واستل خنجراً من حزامه وأغمده فى صدره . . فخر صريعاً

في اللحظة الاخيرة

هل رجع من « ديرالطين » الى القاهرة ، ليستوثق من تحصين القلعة ؟!
أم تراه عاد اليها ، ليسوق الى المعركة جنوداً يحشدهم على وجه السرعة ، لقاء مال يشتري أرواحهم به ؟! أم تراه يفكر في الرحيل عن مصر ، فجاء اليها وقت الغروب ليباشر بنفسه جمع ما في حوزته من نقود وجواهر استعداداً للساعة الرهيبة . . ؟!

هكذا تساءل جيش علي بك الكبير ، أو بالحرى ، تساءل قواد جيشه الواقف وراء خط الدفاع عن القاهرة ، الذي امتد من ساحل النيل ، الى سفح المقطم وقد أقيمت فيه المتاريس ، ونصبت المدافع

تساءل كبار رجاله عن سبب عودته من ميدان القتال عند الغروب ، على حين أنه القائد الأعلى ، ومع أن معسكر جيش محمد بك أبي الذهب ، على الضفة الغربية من النيل ، وقد أرجأ عبوره الى الصباح

لم يكن ثم شيء من هذا ، فان علي بك كان وطيد العزم على مباشرة المعركة بنفسه ، وتوجيهها حسب تعليماته ، بعد أن حصن القلعة بالقاهرة ، فأحكم تحصينها وما كان يخشى قيام الفتنة في العاصمة . كلا .. ولا كان في باله أن جيشه الذي يحمي خط الدفاع ، في حاجة الى مدد جديد

الذي غاب عن قواده ، هو أن رسولا قدم اليه في القاهرة ، ينبئه بأن الشيخ « ضاهر العمر » أمير عكا ، قد أنفذ ابنه الشيخ احمد بكتاب أوصاه أن يسلمه اليه يداً بيد . فرأى أن يعود الى القاهرة على يقين أن الشيخ ضاهر لا يرسل اليه ولده إلا في أمر جليل

نهض علي بك من فوره ، وامتطى جواده ، وأناب عنه علي بك الطنطاوي ، ريثما يعود من لقاء ضيفه الكريم . وأطلق لجواده العنان ،

فدخل القاهرة من باب القرافة ، عقب صلاة المغرب . ومن هناك جد في السير الى القلعة ، حيث كان الشيخ احمد فى انتظاره ، فرحب به وأهل ، وسأله عن حال والده ، فرد عليه بأنه تركه بخير . . . ثم سلمه خطاب أبيه ، ففضه وقرأه

فعل الخطاب في على بك ، أشد مما يفعل السحر . ذلك ان الشيخ ضاهر ألح عليه في أن يبرح القاهرة حالا ، ويأتي اليه ولو بمفرده ، لأن مندوب « كاترين الثانية » قيصرة الروسيا ، هبط عكا مفوضا في عقد معاهدة دفاعية هجومية معه . فلم يسع على بك الكبير إلا أن يبادر الى تلبية هذا الالحاح والاذعان لمشورة صديقه ، وزاد في ميله الى مغادرة القاهرة ، أمله من جهة كاترين ، وخيبة رجائه في مقدرة جيشه ـ جيشه الذى عاد منذ أيام مدحوراً قد حلت به نكبة فادحة أمام مدينة « بياضه » ، فولى الأدبار . وبئس الجيش كان ،لقد جمعه على عجل من المغاربة المأجورين ، ومن أوباش الجند ، وفلول الانكشارية والمتفرقة والعزب ، وضباطه من صغار المماليك ، قد رفع على بك سبعة منهم الى رتبة السنجقية كارهاً مضطراً منذ أسابيع ، ليسد النقص الذريع ، الذىفوجىء به على أثر خيانة اسماعيل بك الجرجانى ، قائد التجريدة الأولى التى كان قد بعث بها منذ شهر لتصد جيش محمد بك أبى الذهب . فما ان التقى الجمعان شرقي « أولاد يحي » ، حتى القى اسماعيل بك سلاحه واقتدى به من كان تحت قيادته من السناجق ـ وعددهم سبعة ـ وأعلنوا انضمامهم الى محمد بك ابي الذهب . فاغتبط أبو الذهب بما فعله اسماعيل بك ورفاقه ، واستقوى بهم على مواصلة الزحف الى « بياضه » . وهناك التقوا بالتجريدة الثانيـة التى بعث بها على بك تحت قيادة على بك الطنطاوى ، فدحرها أبو الذهب ، فكرت راجعة عائدة الى « دير الطين »

شعر على بك ـ أو لعله أيقن ـ أن جيشه غير مدرب . وقواده الشبان لا يركن إلا الى اثنين منهم : أحدهما مراد بك ، وكان جباراً عتياً لا يشق له في ادارة القتال غبار . والآخر علي بك الطنطاوي ، وهو من أبناء جلدته ، ومن اشد اعوانه اخلاصاً له

أيقن على بيك من هزيمة جيشه ، واشفق على مصـيره بعد الخذلان .

والذى قوى في نفسه هذا الاعتقاد ، أمله في أن يعقد مع كاترين الثانية معاهدة تمده بالمال والذخيرة والرجال ، فيسير في جيش عظيم يخضع به مصر لحكمه المطلق مرة ثانية ، وينتقم من ابى الذهب ومن السناجق الذين خانوه في آخر لحظة ، وانضموا الى عدوه

لهذا أمر يوسف الخازندار بالتعجيل في اعداد الجمال اللازمة لحمل الذهب والجواهر ، وحمل الحريم ومن بينهن زوجته نفيسه هانم

وأصدر أمره الى على بك الطنطاوى أن يعود من دير الطين الى القلعة على جناح السرعة ومعه مماليكه ، ويتخلى عن القيادة العامة في خط الدفاع لمراد بك

ثم استاذن على بك الكبير الشيخ احمد في أن يدعه يذهب بنفسه الى قصره المطل على بركة الازبكية بدرب عبد الحق ، ليشرف بنفسه على وسق الجمال بالذهب والجواهر والحريم ، ثم يعود اليه قبل الفجر ليشدا الرحال الى فلسطين

ثم غادر القلعة منحدراً الى بركة الازبكية ، يصحبه على بك الطنطاوى . وما زال في انحداره حتى دخل قصره ، فوجد يوسف الخازندار قد أحضر جمالا تربى على الثلاثين ، فاستحث مماليكه في اخراج الذهب من خزائنه ، ووضعه في الحقائب

ودخل الى الحريم وحده وعاد بعد وقت ليس بالطويل ، وبين يديه صناديق الجواهر وخلفه زوجته نفيسةهانم ووصيفاتها. فوسقت الجمال وركب الحريم ، ووكل على بك الطنطاوي بالسير بها الى بوابة الفتوح ، على أن ينتظر هناك ريثما يلحق به هو والشيخ احمد ومماليكه ومن يقع عليهم اختياره من الجنود المرابطة بالقلعة

سار على بك الطنطاوى ميمما نحو الشمال ، ويمم على بك شطر الشرق وجد كلاهما في المسير

دخل على بك القلعة من باب « العزب » وصعد في الدهليز الحجرى الى الديوان ، حيث الشيخ احمد في انتظاره كما تواعدا.

وكان الفجر قد ابتسمت تباشيره ، فقال علي بك لضيفه : « هيا بنا نسير على بركة الله »

وانطلقا الى باب الفتوح فى كوكبة من المماليك والجنود الذين اصطفاهم علي بك لمرافقته في رحلته الى عكاء فبلغوه عند الفجر - وخرجوا والخيوط الأولى من الضياء تبدو في جوانب الليل البهيم ، وفي هذا الوقت ، أو بعده بقليل ، نشبت المعركة بين جيش محمد بك أبي الذهب ، والجيش الذي يقوده مراد بك

ودارت الدائرة على أضعف الجيشين . . . ؟ !

خطاب من المنجم

وعثاء السفر ، وخيانة مماليكه الذين رفعهم من مرتبة الخدم والعبيد الى مرتبة الامراء والحكام والقواد ، وخروجه من ملكه الذى قضى حياته في توطيده وانتزاعه من سلطة الترك ففاز ببغيته آخر الامر واستتب له الحال ثلاث سنوات،وانشغال باله باستعادة هذا الملك ممن اغتصبه ، وسعيه المستمر لجمع جيش تسير جحافله تحت إمرته فاتحا حيث كان سيداً مطاعاً ـ هذه العوامل مجتمعة مرض من ثقلها على بك الكبير في عكا . مرض جسمه وما مرضت همته ، فانه استطاع أن يفاوض مندوب كاترين الثانية،ويعقد مع روسيا معاهدة فأعطته ثلاثة آلاف من جنود الارناؤوط ، ومؤناً وذخائر كثيرة . ووضعت في خدمته أسطول الروسيا الذي طاف حول أوربا ونفذ الى البحر الابيض المتوسط ليثير الفتنة النائمة في بلاد اليونان ، ويؤلب على الدولة العلية مماليك مصر ، ويشد أزر غيرهم من حكام الولايات خصوصاً من كان منهم منحدراً من أصلاب غير تركية

عنده مال وافر وذخائر ومؤن هائلة تكفي لتسليح جيش كعباب البحر ، لكن أنى له أن يجمع جيشاً من بلاد فلسطين ، وكل بلادها قد عادت الى قبضة الترك وتألبت عليه وشقت عصا الطاعة ، عقب عودة أبى الذهب من حلب الى القاهرة لا يلوي على شيء طوال طريقه الشاسع

كان لا بد إذن ، من اخضاع يافا وحيفا وغزة والقدس ، وبلاد أخرى ، قبل أن يتهيأ لعلى بك جمع القدر الكافي من الجنود لفتح مصر عنوة

ومسألة أخرى قسرته على اخضاع فلسطين أولا ثم الانقضاض على مصر ثانياً ، تلك هي أن يحمى ظهر جيشه ، فان الحاميات التركية والمسالمة لتركيا في

تلك المدن ، لا تؤمن أن تقطع عليه الخط ، فيقع بين نارين : جيش أبي الذهب من الامام ، وجنود تلك الحاميات من الخلف ! فوجه على بك الطنطاوي في ألف من الارناؤوط ، وشطر من جيش الشيخ ضاهر ، لافتتاح مدائن صور وصيدا والقدس . فلم تناضل حامياتها نضالا يصح أن نصفه بأنه قتال

وسار هو بنفسه على رأس من بقي من الارناؤوط الى يافا .. فحاصرها ، وامتنعت عليه خمسة أشهر ثم اقتحمها ، وفي أثناء ذلك افتتح حسن بك الجداوى غزة والرملة واللد من غير قتال ، إذ سلمت حامياتها من غير عناء

استنزف حصار يافا دماء غزيرة من جيش على بك ، واستنفد ذخائر ومؤناً لا يستهان بها . وها هو ذا بعد اقتحامها يحصي من ينضوى تحت لوائه ولواء حليفه الشيخ ضاهر ، فلا يزيد عددهم على اربعة آلاف وخمسمائة مقاتل على الاكثر . وجيش هذا عدده ، اذا جاز ان يدافع عن فلسطين حين يغير عليها ابو الذهب في جيش يبلغ أربعة أضعافه ـ فان من الخرق توجيهه للاغارة على مصر ، وليس أهل فلسطين بالذين يغامرون تحت إمرة قائد أجنبي عنهم ، وما هنالك من وسيلة لشراء سيوفهم ونجدتهم بالمال

فماذا هو صانع ؟ ما هى الطريقة التى تيسر له حشد جيش لا يقل عن عشرين الفاً ؟ !

أجل عشرون ألفاً أو يزيدون ولا ينقصون . فالزيادة في الهجوم مطلوبة والنقص في عدد الجيش لدى الاغارة محفوف بالمكاره ، لاتؤمن مغبة انكساره ، اذا وثب به الجيش المدافع عن مصر . هذا الى أن أبا الذهب قائد أريب قد خبر الحرب وأصاب من خوض معاركها دروسا وتجارب تجعله ممن يحسب لهم الف حساب، مهما يكن عدد من تحت قيادته من عسكر قليلا . ولن يكون جنود ابى الذهب قليلين . وكيف يكونون كذلك وقد أعانه على ملك مصر جميع السناجق والكشاف ، حتى السناجق السبعة الذين خلع عليهم السنجقيات قبيل فراره من مصر ، وعلى رأسهم مراد بك الذي بادر الى الارتماء في أحضان ابى الذهب عند اطلاق أول قنبلة على خط الدفاع الذي أقامه على بك ليذود عن القاهرة جيش الثائرين ، ودانت فرق الحاميات الموكلة

بأبواب القلعة لجبروت أبي الذهب إلا فرقة الانكشارية ، فانه ظن انها تبقى على ولائه في غيبته لما غمرها من فضل هباته ، ولكونها ثبتت الى جانبه حتى اللحظة الأخيرة

ألفى على بك نفسه أمام معضلة حربية ، فجمع قواده بحضرة الشيخ ضاهر وأولاده وشاورهم في الأمر . فاستقر الرأي على استيراد جنود من المغاربة ، ينقلهم الاسطول الروسى من بلاد المغرب ـ طرابلس وتونس والجزائر على الأخص ـ الى يافا

إلا أن جنود المغاربة المأجورين ، قد بلاهم على بك فذاق من بلائهم الأمرين : انهم جنود يبحثون عن الغنيمة أينما وقعت ، اليوم معك وغداً عليك . يقاتلون تحت بريق الذهب وكم كان يود لو أتيح له اجتلاب جيش صغير من الارناؤوط . ولقد فكر في ذلك فعلا ، وفاوض قبطان الاسطول الروسي الراسى في ميناء عكا ، فوعده بالنظر في طلبه ، ومخاطبة البرنس اورلوف في ذلك

وما ان وصلت أول دفعة من جنود المغاربة ، ويبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، حتى وقع ما ليس في الحسبان . فقد وصل رسول ملثم قدم الى يافا من القاهرة ، يحمل كتابا من نعمان افندى . ونعمان افندي هذا هو منجم على بك وأحد الرجال الذين كان يستشيرهم في كبيرات المشكلات عندما كان سيداً على مصر لا ينازعه في حكمها انسان . ولطالما استشار نعمان افندي نجوم السماء في حل هذه المشاكل ، فأشارت عليه بهذا الامر أو ذاك

فورد خطاب من نعمان افندى الى على بك يعتبر في نظره حادثا خطيرا لا سيما وهو يثق في هذا النعمان افندى ثقة لا حد لها

القلوب تجازي القلوب ، والمرء قد يستبشر ويتفاءل من خطاب قبل ان يفتضه ، شأنه في ذلك شأن الملهمين

ولم يكن استبشار علي بك بخطاب منجمه من قبيل الظنون الكاذبة والآمال المستحيلة . ذلك ان نعمان افندي قال في خطابه انه حسب الطالع ونظر في النجوم ، واستنطق الرمل ، فاذا كل هؤلاء يؤكدون ان دولة أبي الذهب

في مصر ستدول على يد على بك الذي يغزوها فتعنو له الوجوه ، وتذل الرقاب ويعود ملكه فيها سيرته الاولى

البشرى في بعض الأحيان تجر البشرى . والفأل الحسن يطرد ويتكرر هذا ما خبره الناس في تجاريبهم ، وهذا ما حدث لعلى بك اذ ذاك

وبهذا الخطاب السعيد ، قد تتابعت على اثره خطابات سعيدة اولها من ضباط الانكشارية . وثانيها من فرقة الغرب . وثالثها من مراد بك ، وهو ورفاقه سناجق الامس القريب. ورابعها الى سادسها من هيئات احزاب ضجت بالانين من عسف ابى الذهب خصوصاً الخطاب الذي بعث به تجار القاهرة يجأرون بالشكوى من فداحة الضرائب التي فرضها عليهم على بك

كانت هذه الخطابات بمعنى واحد وفحواها ان ابا الذهب مكروه من الجميع وان الجميع يتمنون له زوال السلطان ويتربصون به الدوائر ولا يتأخرون عن الانحياز الى على بك اذا أتى فاتحاً !

السماء تبشره بعودته الى ملكه، والارض تعده بالمساعدة على استرداد ملكه والخروج عن طاعة مغتصب هذا الملك ، فما الذي يستبطئه عن الزحف على مصر ؟ ! انه ان زحف عليها لا يصاحبه غير سيفه ، دخلها مؤيداً منصوراً ، فما لاشك عنده فيه أن جنود أبي الذهب وقواد جيشه يهتفون له وينضوون تحت لوائه متى لاح لهم شخصه ورأوا مولاهم القديم . فكيف وقد جمع ثمانية آلاف جندي ، نصفهم على التقريب من المغاربة . والمغاربة مهما يكن تقلبهم ووهن الثقة في اخلاصهم ، فماذا يؤثر تألبهم اذا ابتسم الحظ

اذا تمكنت في المرء عقيدة في الفوز وصح عنده ان الحظ في جانبه أقدم على المخاطر بقلب الجريء الضاحك للخطوب

وقد بلغ من ثقة على بك بسعد طالعه وصعود جده ان أدهش صديقه الشيخ ضاهر بعزمه علي الزحف على مصر وأدهش قواده بأمرهم أن ياخذوا أهبتهم للرحيل غداً وفي الغد سار جيش عدته ثمانية آلاف ، يقوده علي بك الكبير ووجهته مصر التى أيقن انه فاتحها لا محالة

النجم الذى أفل

ثمانية آلاف يقهرون اثنى عشر الف مقاتل في بضع ساعات ؟ !

هـذا هو التوفيق الذى تـكهن به منجم على بك في خطابه . والنصر يجلب النصر ، أو على الاقل يقوى فؤاد المنتصر ، ويخلع قلب الخائب المدحور

في أوائل شهر صفر من سـنة ١١٨٧ هجرية ، وصل جيش على بك الى الصالحية فوجد قبالتها مقـدمة جيش محمد بك أبي الذهب بقيادة مراد بك . وعجيب ان يقود هذا الفتى اليافع جيشاً يناجز به سيده بالامس القريب . لقد تركه على رأس الجنود للدفاع عن القاهرة عنـد ما فارقها ملبياً دعوة الشيخ ضاهر منذ عام واحد ، فما الذى أحاله عدواً لدوداً لمولاه فجاء فى المقدمة يشهر حسامه في وجهه ؟ ! كان الأحرى ان يتأخر عن هـذه المنزلة ، فلأى أمر سعى قبل كل الخصوم ، وتقدم يذود سيده عن افتتاح الصالحية ؟ وفي الحق ان على بك تحير في أمر هـذا القائد الشاب الذي وان يك قد جرى على نهج المماليك في الغـدر باولياء نعمتهم ، فقد غامر وتحدى جيش على بك فابتدره بالهجوم ، مع أن وظيفته ان يدافع طبقا لما تقتضيه قواعد الحرب . لكأنه يتعجل الزلفى من أبى الذهب ، ويود لو تقرب عنده بدم على بك

وأين له ان يظفر بقائد محنك مثل على بك ! ومهما يكن من رأى الذين شهدوا المعركة ، فزعموا ان هجوم مراد بك على جيش على بك ، كان غلطة حربيـة استغلها الاخـير ، فضرب عدوه ضربة ردته فلولا لاذت بالفرار وعلى رأسها قائدها ـ مهما يكن من رأى شهود العيان هؤلاء ، فان النتيجة كانت تـكون هي هي ، لو دافع مراد وهجم على بك . فشتان بين القائدين ، وشتان بين العسكرين . ينضاف الى ذلك ان الذخيرة والاسلحة التى تزود بها جيش على بك من الروس ، كانت خليقة ان ترجح كفته في المعركة .

فما عول عليه على بك في الفوز ، ووضعه في رأس حسابه ، ان الذخيرة عند أبى الذهب ناضبة والسلاح قليل

انهزمت مقدمة جيش أبي الذهب ، وابتدأت المعركة الحاسمة بمجيء المؤخرة يقودها أبو الذهب بنفسه. فكنت ترى امام الصالحية قبتين: احداهما في الشمال والاخرى في الجنوب . القبة الشمالية هي خيمة علي بك ، جلس فيها هو وزوجته نفيسة هانم ووصيفاتها وخاصة الخدم والحشم ، يحرسها خمسون مملوكا في أتم عدة وأوفى سلاح . والقبة الجنوبية هي خيمة محمد بك أبي الذهب ، وهى عبارة عن صيوان كبير فسيح الارجاء ، مرتفع الجدران ، ظاهره مصنوع من جوخ بديع النسيج ، مبطن بالاطلس الاحمر ، وقوائم الصيوان وعساكره من نحاس أصفر مموه بالذهب ، وقبيل المعركة عقد فيه أبو الذهب مجلساً حربياً

قال أبو الذهب موجهاً الخطاب لمراد بك : « ليس بيننا من يجترىء على قتل على بك اذا أحطنا بخيمته غيرك »

فقال مراد بك : « أنا بذلك زعيم . وأعود فأطلب توكيد وعدك »

فغمز محمد بك أبو الذهب بعينه وابتسم ثم قال : « أعدك للمرة الثانية بأن تكون نفيسة هانم من حظك في الغنيمة »

فاستدرك عليه اسماعيل بك الجرجانى ، وزاد على الوعد مانسيه أبو الذهب فقال : « ويعدك محمد بك فوق هذا بحيازة كل مايملكه على بك ، من مال وضياع ومماليك وعبيد »

فترنح مراد بك من الغيظ وقال : « أرانى قد أوشكت أن أكافأ على صبري على ما ابتليت به من برحاء الهوى »

فقال أبو الذهب يزيد في اغرائه ، ويدخل الى قرارة نفسه من الثلمة التى تلمسها في قلبه ـ ثلمة هيامه بنفيسة هانم التى عشقها منذ عرضها النخاس على مولاه على بك فى قصره بالقاهرة من سنوات

فقال محمد بك : « هيا بنا الى المعركة ، وليكن مراد بك على الميمنة ، واسماعيل بيك على الميسرة ، وقلب الجيش أنا أتولاه »

وكان هذا ايذانا بنشوب القتال

استمر القتال بين الفريقين ، وصمد جنود على بك لهجات العدو وردوا جنوده على أعقابهم مرات ، ثم انقلبوا من موقف الدفاع الى موقف الهجوم فلازمهم حسن الحظ حتى آخر النهار . فلما أقبل الليل كف الفريقان وعاد كل جيش الى معسكره ، وما كان هناك شك حتى عند أبي الذهب في ان المعركة الحاسمة التي ستدور في الغد القريب ، ترجح كثيراً ان ينتصر فيها على بك ، بفضل جنود الارناؤوط المدربين ، وبفضل المدافع السريعة الطلقات البعيدة المرمى القوية القنابل عن مدافعه . فهذه المدافع هي وبنادق الارناؤوط والمغاربة الذين يتألف منهم جيش علي بك ، قد حصدت جنوده وردت هجومهم ، ثم أحالتهم مدافعين بعد ان كانوا مهاجمين على الرغم من انهم يبلغون ضعف أعدائهم

اذا ترك الفصل في المعركة غير الحاسمة للسيف والمدفع ، فان الهزيمة سيقضى بها على أبي الذهب ، وفي هذا قضاء عليه

ففي أي نقط الضعف يضرب خصمه ، وما هو المقتل الذى لم يتحرز منه علي بك حتى يطعنه فيه ؟ لقد أيقن علي بك ان الخطابات التى وصلته من زعماء المماليك وكبار الضباط في حاميات القلعة ما كانت الا من قبيل الغش والتمويه . والا فلماذا لم ينضموا اليه عند احتدام المعركة ، ولماذا شددوا النكير في هجماتهم كرة بعد أخرى ؟ ! لعلهم أرجأوا الانضمام اليه الى الليل ففي الظلام تقترف الخيانات وترتكب المآثم

أليست الحرب خدعة ؟ أليس الذهب يعمل ما يعجز عنه الحديد والنار ؟ أليس محمد بك أبو الذهب قد زيف الخطابات التي تلقاها علي بك ، فنسب واحداً الى منجمه ، ونسب بقيتها الى أصحاب الرأي في القاهرة . أليس قد خان علي بك من خانه من مماليكه وصنائعه ، طمعاً في المغانم وحباً في المال والمناصب ؟ ! فلماذا لا يستخدم في معركة الغد ، نفس هذا السلاح الماضي الذي أثبتت التجربة انه لا ينبو ؟ !

ان المغاربة يؤلفون نصف جيش علي بك وهم أجراء فاذا بذل لهم

أبو الذهب من ماله الشيء الكثير فترت عزيمتهم عن القتال ، وحقنوا دماءهم بالقاء السلاح ساعة يضطرم الكفاح

أخيراً عول محمد بك أبو الذهب وعهد الى مراد بك في حمل المال رشوة للمغاربة . فتلطف مراد بك في ايصاله اليهم على يد نفر من بني جلدتهم ، جاءوا مع أبي الذهب من القاهرة . فعادت رسله تؤكد ان المغاربة في جيش علي بك ، سيكونون اذا جد الجد ، لا عليه ولا له

وقد صدق الرسل الذين اشتروا ذمم مواطنيهم بمال أبي الذهب . فان جنود الارناؤوط هم وحدهم الذين أبلوا في المعركة الحاسمة التي دارت في الغد أحسن بلاء . ولكن كيف يصبر ثلاثة آلاف جندي أو نحو ذلك ، على قتال نحو من ثلاثين الفاً . والمدافع وقنابلها لا تغني عن نصف الجيش ، اذا سحق أو تمرد أو أبى هذا النصف ان يصدع بأوامر ضباطه . ولم تك ثم مندوحة عن هزيمة علي بك في تلك المعركة . اذ لم يثبت الارناؤوط لاعدائهم اكثر من ساعات . ثم انهزموا متقهقرين بغير انتظام ، فتعقبهم جيش أبو الذهب

جيش علي بك شطر منــه انهزم ولاذ بالفرار وهم الارناؤوط ، والشطر الثاني بقى كالجثث دون حراك ، وهم الذين أقعدهم الدينار عن حمل السلاح . أما هو فقد دوهم في خيمته ، وأحاطت به كوكبة من الفرسان يقودها مراد بك. فأوسعت حراس خيمته تقتيلا حتى أفنتهم عن آخرهم ، وحتى لم يجد مراد بك من يذوده عن باب الخيمة . فدخلها ودخل خلفه فرسان آخرون ، دخلوا مترجلين ، وفى أيديهم السيوف مسلولة فاستقبلهم علي بك بسيفه المسلول . ودارت بينه وبينهم معركة تشبه دفاع الليث عن عرينه ، جرح فيها في أكثر من عضو ، وأنكى ما أصابه جرح في وجهه خر على أثره صريعاً فحملوه على الاعناق بين الحيــاة والموت . ومضوا به إلى خيمة أبي الذهب ، فخرج الى الباب يستقبله مرعوبا تثور في نفسه احساسات لاذعة . وانتظر هنيهة مطرقا الى الارض وقد امتقع لونه وظل مطرقا كالمذهول ، الى ان شعر بوقع أقدام تمشى الهوينا والسكون شامل والوجوم يبرقع الوجوه ، فانتبه من غشيته فاذا سيده

القديم علي بك قد عاد محمولا على أعناق الرجال فخف اليه وسأل : « هل لا يزال الجريح على قيد الحياة »

فأجابته أنات تحشرجت في صدر علي بك ، فتقدم وأمرهم أن ينزلوه الى الارض ، فذلك خير للجريح

فأنزل الرجال علي بك برفق الى الارض ، وساندوه ، فتلقى محمد بك أبو الذهب يد مولاه فقبلها ووضع يمينه تحت ابطه الايسر ، وأعانه على الدخول الى الصيوان العظيم ـ الى حيث صار أسيراً بين الحياة والموت

النهاية

أشرقت شمس ١٥ شوال سنة ١١٨٧ هجرية على جثة هامدة ، على جسم أوهنه السقم وقوضته الجراح وأفناه السم عضواً فعضواً

أسبوع واحد قضاه علي بك في داره بدرب عبد الحق ثم قضى نحبه . قضى نحبه على حين قوى الرجاء في برئه واندمال جراحاته

ولا يعلم أحد إلا محمد بك أبو الذهب سر موته فجأة . أما الاشاعة فتقول انه مات مسموماً ، دست له زوجته نفيسة هانم السم في الدواء ، وقيل إن طبيبه دس السم في جروحه وقيل في دوائه ، فأسرع فيه

مات عند الفجر أو بعده بقليل ، فانتشر خبر وفاته في القاهرة وسرت ذكراه سريان العطر في الروضة الغناء وسام الجميع في الحسرة عليه ، حتى قاتله أبو الذهب ذرف الدموع على جثته وسار أمام نعشه يشيعه من داره الى الدار الباقية

رجل واحد لم يحزن على وفاة علي بك الكبير . رجل واحد ، هو مراد بك ، فهذا المملوك العاق فرح من كل قلبه ، وفرحت لفرحه نفيسة هانم . فتعانقا فوق جثته ، ورنت قبلاتهما فاختلط الرنين بأنينه وإعوال الباكين

ودفن علي بك الكبير بجوار سيده وأستاذه ابراهيم بك ذي الفقار على مقربة من ضريح الامام الشافعي

وطوى الزمان صفحة من كتابه فيها تفكهة وفيها عظة


Bibliotheca Alexandrina
04224954